



قسم اللغة والأدب العربي
التخصص: لسانيات تطبيقية

المستوى الذهني للغة عند البلاغيين القدماء

" (مفتاح العلوم) للسكاكي أنموذجا "

-دراسة وصفية تحليلية-

مذكرة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على شهادة الماستر

إشراف الأستاذ:

- عمر بورنان

إعداد الطالبتين:

1- كهينة بوزيدي

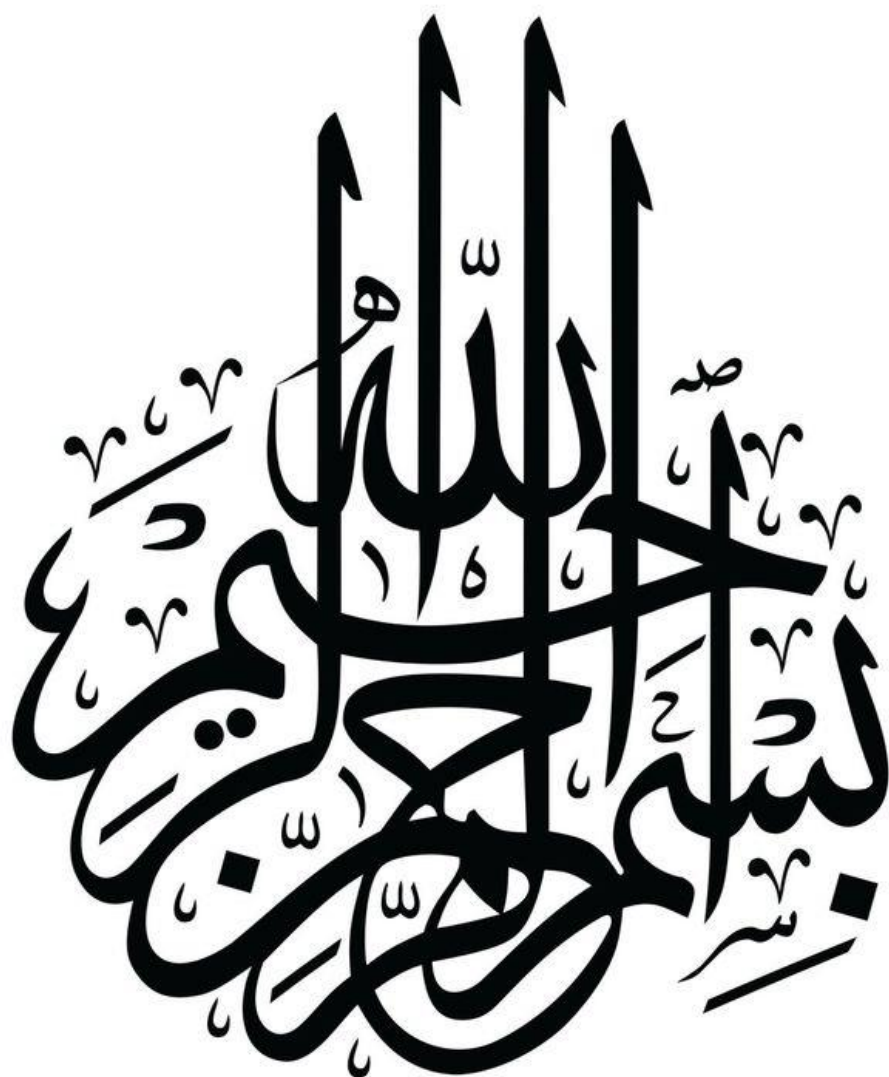
2- ليزا شطابي

لجنة المناقشة:

رئيسا	جامعة أكلي محمد أولحاج- البويرة	أ.د. بوعلام طهراوي
مشرفا ومقررا	جامعة أكلي محمد أولحاج- البويرة	أ.د. عمر بورنان
عضوا مناقشا	جامعة أكلي محمد أولحاج- البويرة	أ. إلياس جوادي

السنة الجامعية:

2025-2026م



▪ قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۖ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۖ وَاخْلُكْ عُنُقَهُ ۖ

مِّن لِّسَانِي ۖ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ (سورة طه: 25-28)

▪ وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمُ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (سورة المجادلة: 11)

▪ وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ

أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (سورة الزمر: 9)

▪ وقال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (سورة الإسراء: 85)

▪ وقال تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ (سورة

آل عمران: 7)

▪ وقال رسول الله ﷺ: «اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وارزقني

علمًا تنفعني به». الحمد لله على كل حال.

▪ اللهم يا معلم إبراهيم علّمنّا، وفهمنا، ومكّنّا من الفهم كما مكّنت سليمان.

▪ اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً، وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلاً.

▪ يا ربنا يا حي يا قيوم، نسألك التوفيق والنجاح والعلم والتواضع يا رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله حمداً يليق بجلاله وعظيم سلطانه، الحمد لله الذي جعل لنا من العلم نوراً نهتدي به، ونشكره على توفيقه، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحابه الكرام، أما بعد:

فلقد حظيت اللغة باهتمام كبير منذ القدم، وتعددت نظرة العلماء إليها بتعدد القضايا التي درسوها؛ فمنهم من اهتم بأصل اللغة ونشأتها، ومنهم من بحث في كيفية اكتسابها وتعلمها، في حين اتجه آخرون إلى دراسة وظائفها وبنيتها وتركيبها. كما ظهرت اتجاهات أخرى نظرت إلى اللغة من زاوية ذهنية تربط بين الكلام والعمليات الذهنية والإدراكية التي يقوم بها المتكلم والسامع أثناء عملية التخاطب.

ويُعد أبو يعقوب السَّكَّاکي من بين من تجلّت عندهم هذه النظرة في كتابه مفتاح العلوم. ونعلم أن البلاغة العربية هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، إلا أنه مع مجيء السَّكَّاکي تغيّرت النظرة إلى البلاغة، إذ أصبحت عنده عملية ذهنية؛ فالكلام عنده لا يصدر تلقائياً، بل يسبقه نشاط ذهني يتمثل في العمليات الذهنية من إدراك وقصد ونية واعتقاد، وأن المتكلم يختار كلامه عن قصد.

كما اهتم بمراعاة مقتضى الحال من خلال مراعاة الحالة الذهنية للمستمع ومدى إدراكه وفهمه للرسالة التواصلية، وهو ما يكشف لنا حضوراً واضحاً للمستوى الذهني في بناء الخطاب البلاغي.

وقد انطلق بحثنا من الإشكالية الآتية:

- ماذا قال البلاغيون عن المستوى الذهني للغة عند المتكلم وعند المستمع (السَّكَاكِي)؟
- وكيف أثر هذا المستوى في التركيب اللغوي؟ وفيما تتفق هذه النظرة مع اللسانيين، وفيما تختلف؟

أما بالنسبة للدراسات السابقة التي تتشابه مع موضوعنا، لدينا كتاب (علم اللغة النفسي) لعبد العزيز بن إبراهيم العصيلي، وهناك مقالة "عمر بورنان" بعنوان: (ثقة المتكلم بفهم السامع وأثرها في بناء الكلام)، في مجلة العلوم الإنسانية/ كلية التربية للعلوم الإنسانية. لكنه لم يتطرق إلى السؤال المطروح في موضوعنا الذي نسعى للوصول إلى الإجابة عنه.

- ويرجع اختيارنا هذا الموضوع إلى جملة من الدوافع، منها العلمية ومنها الذاتية؛ أبرزها:
- يعد تراثنا اللغوي العربي من أغنى المجالات التي تزخر بالقضايا الجديرة بالبحث والدراسة والتحليل، لما له من دور كبير في الحفاظ على اللغة العربية وعلومها.

- يهدف هذا العمل إلى محاولة إبراز وعي البلاغيين القدماء بحضور العمليات الذهنية بين المتكلم والمستمع في بناء الكلام، من خلال مراعاة قصد المتكلم وحالة السامع الذهنية ومقتضى الحال.

أما الأسباب الذاتية فتتمثل في اهتمامنا بالبلاغة العربية القديمة ورغبتنا في الكشف عن العلاقة بين اللغة والذهن والبلاغة.

ومن أجل الإحاطة بجوانب الموضوع جاءت خطة البحث وفق التقسيم التالي: مقدمة، فصلين، وخاتمة. عنواناً الفصل الأول ب: (المستوى الذهني للغة في الفكر البلاغي العربي القديم والفكر اللساني الغربي الحديث)، ونتناول في هذا الفصل أربعة مباحث: المبحث الأول تحت عنوان: "تحديد المصطلحات وضبط المفاهيم (اللغة، البلاغة، المستوى الذهني، الاعتقاد، الإدراك)". أما المبحث الثاني فمعنون ب: "البلاغة العربية نشأتها وتطورها وعلومها والفائدة من تعلمها"، حيث تطرقنا فيه أولاً إلى نشأة البلاغة وتطورها من القرن الثاني للهجرة إلى القرن السادس للهجرة، وثانياً إلى أعلامها ومؤلفاتهم، وثالثاً إلى علوم البلاغة العربية (علم المعاني، علم البيان، علم البديع)، ورابعاً إلى الفائدة من تعلمها. أما المبحث الثالث فعنوانه: "نظرة البلاغيين القدامى إلى مستوى الذهني"، وقد قسمناه إلى عنصرين، وهما: أولاً: المستوى الذهني للغة عند الجاحظ (ت 255هـ)، ثانياً: المستوى الذهني للغة عند عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ). ويتناول المبحث الرابع في هذا الفصل النظري نظرة اللسانيين المحدثين للمستوى الذهني للغة؛ حيث

يبرز أولاً المستوى الذهني للغة في اللسانيات العامة عند دي سوسير (تم 1913)، ثم المستوى الذهني للغة عند جورج لاكوف، وخُتم الفصل باستنتاجات شاملة للفصل النظري.

أما الفصل الثاني فعنوانه: المستوى الذهني للغة عند السكاكي في مفتاح العلوم، وهو مقسم بدوره إلى أربعة مباحث: المبحث الأول عبارة عن تحديد المصطلحات والمفاهيم، حيث عرّفنا فيه عناصر العملية التواصلية (المتكلم، المستمع، والسياق)، كما عرّفنا العمليات الذهنية عند أطراف التواصل مثل (القصد، النية، النفس). أما المبحث الثاني فيتضمن المستوى الذهني للغة عند المتكلم والمستمع في مفتاح العلوم. والمبحث الثالث كان بعنوان: كيفية تأثير المستوى الذهني للغة عند المتكلم والمستمع على التركيب اللغوي، وتحدثنا فيه عن أثره في اختيار التراكيب سواء في علم المعاني أو علم البيان. بينما عالج المبحث الرابع المقارنة بين المستوى الذهني للغة عند البلاغيين القدامى واللسانيين المحدثين، وخُتم باستنتاجات حول الفصل التطبيقي بأكمله.

وفي الأخير خُتمت الدراسة بخاتمة هي نتيجة جامعة للبحث كله.

تكمن أهمية بحثنا هذا في إعادة قراءة مفتاح العلوم عند أبي يعقوب السكاكي من زاوية ذهنية بلاغية لسانية، ومعرفة كيفية تشكّل الكلام في ذهن المتكلم والسامع قبل صياغة الكلام، مع التركيز على البلاغة والذهن، وهذا هو الجديد في البحث.

يسير بحثنا على المنهج الوصفي التحليلي، وهذا ما تقتضيه طبيعته، من خلال جمع المواضيع المتعلقة بالمستوى الذهني للغة قصد تحليلها وشرحها بطريقة علمية لنتمكن في الأخير من استنتاج المستوى الذهني للغة عند المتكلم والمستمع وكيفية تأثيره في اختيار التراكيب، استندنا إلى مجموعة من المصادر والمراجع التي رأيناها تخدم الموضوع بكثرة، "كتاب (مفتاح العلوم) للسكاكي"، وهو مدونة هذه المذكرة، وكتاب (تلخيص المفتاح) للفزويني" بالإضافة إلى بعض المعاجم التراثية لاستخلاص التعاريف اللغوية، وبعض الكتب مثل "الإعجاز للجرجاني"، و"الحيوان" و"البيان والتبيين" للجاحظ.

أما الصعوبة التي واجهتنا في كتابة هذا العمل فهي عدم فهم أسلوب السكاكي في مفتاح العلوم من الوهلة الأولى، إلا بعد التكرار.

وفي ختام قولنا، يسرنا أن نعبر عن امتناننا وتقديرنا لمشرفنا الفاضل عمر بورنان، لما قدمه من ملاحظات علمية كان لها أثر كبير في إنجاز هذه الدراسة، وله منا خالص الشكر وعظيم الامتنان.

البويرة

يوم السبت 2 ماي 2026 / الموافق لـ 14 ذو القعدة 1447هـ

كهينة بوزيدي - ليزا شطابي

الفصل الأول:

المستوى الذهني للغة في الفكر البلاغي العربي القديم

والفكر اللساني الغربي الحديث.

المبحث الأول: تحديد المصطلحات وضبط المفاهيم

المبحث الثاني: البلاغة العربية نشأتها وتطورها، أعلامها، علومها، والفائدة منها

المبحث الثالث: نظرة البلاغيين القدماء للمستوى الذهني للغة

المبحث الرابع: نظرة اللسانيين المحدثين للمستوى الذهني للغة

الفصل الأول: المستوى الذهني للغة في الفكر البلاغي العربي القديم والفكر اللساني الغربي الحديث.

المبحث الأول: تحديد المصطلحات وضبط بعض المفاهيم

تقتضي طبيعة هذا الفصل النظري الوقوف عند مجموعة من المصطلحات الأساسية المرتبطة بموضوع المذكرة، لما لها من دور في توجيه الفهم وتحديد مسار التحليل، ولكونها أيضاً مفاتيح إجرائية لفهم الإشكالية المطروحة، فمن اللازم ضبط حدودها وشرحها أولاً، وهو ما يبرر تقديمها في هذا المبحث تمهيداً للانتقال إلى المبحث الثاني.

أولاً: مفهوم اللغة لغة واصطلاحاً

تُعَدّ اللغة من أهم وسائل التواصل التي يعتمد عليها الإنسان للتعبير عن أفكاره وحاجاته، لذلك اهتم العلماء بدراستها وتعريفها. نظراً لأهمية اللغة في حياة الإنسان ودورها في التواصل، ونقل المعارف، فقد تعددت تعريفاتها عن العلماء والباحثين.

أ- لغة: قبل التطرق إلى التعريف الاصطلاحي، لا بد من الرجوع إلى المعاجم اللغوية لاستجلاء المعنى اللغوي لكلمة "اللغة"، باعتبارها المصدر الأول في تحديد معاني الألفاظ وجذورها، فجاء في معجم "مقاييس اللغة" لابن فارس أن اللغة يُقال: لَغِيَ يَلْغُو لَغْوَاً، وَلَغِيَ بالأمر إذا لهج به، ويقول إن اشتقاق اللغة منه، أي يلهج صاحبها بها.¹

نستنتج من هذا التعريف أن اللغة مشتقة من "لَغِيَ"، ومعناها اللهج والنطق.

¹ ابن فارس، مقاييس اللغة، ط1، بيروت، لبنان، 2001، دار الإحياء التراث العربي، مادة "ل غ ي" ص214.

الفصل الأول: المستوى الذهني للغة في الفكر البلاغي العربي القديم والفكر اللساني الغربي الحديث.

أما الزمخشري في "أساس البلاغة" فقد عرّف اللغة على هذا النحو: إنّ اللغة من "لَغَا" و"لَعُو"، يُقال: لَغَا فلان يَلْعُو، وتكلم باللَّعُو واللَّغَى، ونقول: زاغ عن الصواب وتكلم بالرَّفَث واللَّغَى، وَلَعَوْتُ: لفظتُ به وتكلمْتُ.¹

نلاحظ من خلال هذا التعريف أنّ اللغة كلام ينطقه الإنسان، فنصل إلى أنّ المعاني اللغوية لكلمة "لغة" في المعاجم العربية هي: التكلم، والنطق، والتلفظ، واللهج في الكلام، سواء أصائبًا مطابقًا للمعنى الصحيح أم غير مصيب، أي لَعَوًا.

- اصطلاحًا: ومن خلال ما سبق من تعريف اللغة لغة، يتضح أنه يركّز أساسًا على جذر الكلمة ودلالاتها العامة، غير أنه لا يعكس طبيعتها بوصفها نظامًا معقدًا للتواصل، لذلك علينا التوجه إلى التعريف الاصطلاحي الذي يقدم لنا تصورًا دقيقًا وشاملاً لهذا المفهوم.

نذكر أولاً تعريف ابن جني (ت392هـ) الذي حدّد ماهيتها ووظيفتها كما يأتي: "أما حدّها فإنّها أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم".

ركّز ابن جني في تعريفه على الطبيعة المنطوقة للغة، مبرزًا البعد الاجتماعي، وبهذا قد يكون قدّم لنا تعريفًا دقيقًا وشاملاً، حيث يظهر لنا أن المتكلم يقصد غرضًا محدّدًا عند النطق، والمستمع يفهم المقصود ضمن إطار اجتماعي متفق عليه، مما يؤكد البعد الذهني للغة.

كما نجد أن ابن خلدون (ت808هـ) عرّف اللغة في كتابه "المقدمة" على هذا الشكل: "اعلم أن اللغة من المتعارف عليه هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن

¹ الزمخشري، أساس البلاغة، ط2، القاهرة، 1973، دار الكتب المصرية، ج1، ص452.

الفصل الأول: المستوى الذهني للغة في الفكر البلاغي العربي القديم والفكر اللساني الغربي الحديث.

القصد بإفادة الكلام، فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفَعَال لها، وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتها".¹

يرى ابن خلدون أن اللغة ليست عبارة عن أصوات فقط، بل هي نشاط ذهني واجتماعي، لأن المتكلم قبل النطق بالكلمة له قصد ونية معينة، فيستخدمها لترجمة أفكاره إلى كلام منطوق، والمستمع بدوره يفسر ويدرك ما سمع، فكل ذلك ضمن إطار اجتماعي متفق عليه.

فبهذا تكون اللغة فعلاً صادرًا عن قصد ووعي، واللغة وسيلة ملموسة لتجسيد الفكرة الذهنية إلى كلام منطوق.

بعد استعراض التعريفات الاصطلاحية العربية للغة، ننتقل الآن إلى الاصطلاح الغربي، وقد عرّف دي سوسير اللغة بأنها "نظام من الرموز الصوتية المخزنة في أذهان أفراد الجماعة اللغوية".²

وفق سوسير، يتضح أن اللغة هي ظاهرة ذهنية بالأساس، ونظام من الصور الصوتية والمعاني مخزنة في أذهان المتكلمين، فالفهم والإدراك عمليتان تسبقان النطق، ويتيح هذا المخزون الذهني التواصل الفَعَال بين المتكلمين.

يمكن ملاحظة التوافق بين تعريف ابن جني وابن خلدون وسوسير، أن اللغة منطوقة واجتماعية، والفكرة الجوهرية أن اللغة ذهنية قبل أن تكون نطقية، بفضل العمليات الذهنية التي تحدث في ذهن المتكلم والمستمع قبل الكلام، مثل الإدراك والقصد.

¹ ابن خلدون، المقدمة، تح: درويش الجويدي، دط، لبنان، المكتبة العصرية صيدا، ص545.

² حسن عبد الجليل يوسف اللغة العربية بين الأصالة والمعاصرة خصائصها ودورها الحضاري وأنصارها، ط1، 2007، دار الوفاء للطباعة والنشر، ص21.

ثانياً: مفهوم البلاغة لغة واصطلاحاً

- لغة: في ضوء ذلك يمكننا الآن تقديم تعريف البلاغة لغة. عرّف ابن فارس في معجمه "مقاييس

اللغة" البلاغة كما يأتي: الوصول إلى الشيء، تقول: بلَغْتُ المكان أي وصلتُ إليه.¹

أما في "لسان العرب" لابن منظور، فقد ورد التعريف اللغوي للبلاغة: أن بلَغَ الشيء يبلُغ بلوغاً، أي وصل وانتهى، وأبلغه إبلاغاً، وبلَّغه تبليغاً، وتبلَّغ بالشيء، ووصل إلى مراده، والبلاغ ما يُتبلَّغ به ويُتوصل إلى الشيء المطلوب، والإبلاغ هو الإيصال، وكذلك التبليغ.²

وقد وردت في القرآن الكريم، ذلك في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُ ﴾ [سورة البقرة:

234].

نستنتج أن لفظ البلاغة في اللغة يدور على معنى الانتهاء والوصول، وهذا ما أثبتته المعاجم اللغوية العربية التي رجعنا إليها.

- اصطلاحاً: بعد أن تعرّفنا على مفهوم البلاغة في اللغة، رأينا أنها بحاجة إلى تعريف اصطلاحى دقيق يحدّد مفهومها في إطار الدراسة العلمية.

كما عرّفها أبو هلال العسكري في كتابه "الصناعتين" بقوله: البلاغة كلّ ما يُبلَّغ به المعنى قلب السامع، فيتمكّن في نفسه كتمكّنه من نفسك، مع صورة مقبولة ومعرض حسن.³

¹ أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دط، دب، 1979، دار الفكر، ج1، مادة (ب ل غ).

² ابن منظور، لسان العرب، دط، بيروت، لبنان، دت، دار صادر، مج8، ج1، مادة (ب ل غ) ص419.

³ أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تح: علي محمد الجاوي وآخر، ط1، دب، 1952، دار الإحياء الكتب العربية، ص10

يقصد بهذا أن البلاغة ليست مجرد ألفاظ، بل هي أداة ووسيلة توصل المعنى من المتكلم إلى عقل المستمع بطريقة تجعله يفهم المعنى بعمق، فيدركه بطريقة تؤثر فيه، فعلى المتكلم أن يستخدم الكلمات بطريقة مقنعة، مع دقة اختيارها وانتقاء الصورة التعبيرية الجميلة التي تجعل المعنى سهل التصور لدى السامع، فالبلاغة عنده هي فن التأثير والإقناع وإيصال المعنى بوضوح، بحيث تترك أثراً في نفس المستمع.

أما الجرجاني فقد عرّفها بأنها وصف الكلام بحسن الدلالة وتامّها، فيما له كانت دلالة، ثم تبرجها في صورة هي أبهى وأزين وأنق وأعجب وأحق بأن تستولي على هوى النفس وتقال الحظ الأوفر من ميل القلوب، وأولى بأن تطلق لسان الحامد وتطيل رغم الحاسد.¹

يعتبر الجرجاني البلاغة مطابقة الكلام للمعنى مع تحسين صورته، فتؤثر في النفوس وتأسر القلوب، فهي لم تكن عنده مجرد زخرفة لفظية دون معنى، بل هي مطابقة الكلام للمعنى مع حسن الصياغة في صورة جمالية مؤثرة، جاعلاً وضوح الدلالة شرطاً أساسياً فيها، إذ لا يُتصور كلام بليغ مع غموض المعنى.

وهكذا يكون الجرجاني يقدّم المعنى ووضوحه قبل الزخرفة اللفظية، مع تأكيده على عملية التأثير في ذهن السامع.

ومن جهة أخرى نجد تعريفاً آخر للبلاغة في "معجم المصطلحات العربية" على أنها مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال، فلا بد فيها من التفكير في المعاني الصادقة، والقيمة اللغوية

¹ الجرجاني، دلائل الإعجاز، علق عليه محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص43.

الفصل الأول: المستوى الذهني للغة في الفكر البلاغي العربي القديم والفكر اللساني الغربي الحديث.

المبتكرة، منسقةً محسنة الترتيب، مع توخي الدقة في انتقاء الكلمات والأساليب على مواطن كلامها ومواقع وموضوعاته، وحال من يُكتب لهم أو يُلقى إليهم.¹

البلاغة في هذا التعريف هي فن اختيار الكلام وتنظيمه بما يوافق المقام، مع مراعاة حال المتلقي، ليصل إليه التركيب واضحاً ومؤثراً فيه. ونجد أن هذا التعريف جامع بين صحة المعنى وجمال اللفظ ومناسبة الأسلوب للمقام والمتلقي.

تتفق كل هذه التعريفات التي أشرنا إليها آنفاً على أن البلاغة ليست مجرد ألفاظ فقط، وإنما هي إحكام التعبير عن المعاني بوضوح وجمال، مع مراعاة المقام وحال السامع، من خلال اختيار المتكلم ألفاظه وحسن تنظيمها لتحقيق التأثير في ذهن المتلقي.

ثالثاً: المستوى الذهني لغة واصطلاحاً

- لغة: ولتحديد المستوى الذهني في الاصطلاح، لا بد من البدء عبر تحليل مفردتي "المستوى" و"الذهني" في أصل استعمالهما. نظراً لوضوح كلمة "المستوى" في اللغة، لا داعي للعودة إلى المعاجم، فمعناها معروف، إذ تدل على الدرجة أو المرتبة التي يبلغها الشيء.

بينما كلمة "ذهن" مأخوذة من الذهن، والذهن لغة كما نجده في معجم "مقاييس اللغة" لابن فارس تعني به "الذال والهاء والنون أصل يدل على قوة، يُقال: ما به ذهن، أي قوة. قال أوس:

أنوء برجل بها ذهنها وأعيت بها أختها الغابرة

¹ مجدي وهبة وكمال المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط2، بيروت، 1980، مكتبة لبنان، ص79.

والذهن الفطنة للشيء والحفظ له، وكذلك الذهن¹.

أما في معجم "مختار الصحاح" فنجد كما يأتي: "ذَهْنٌ: الذهن الفطنة والحفظ، والذهن بفتحَيْن مثله².

من خلال هذين التعريفين نستنتج أن الذهن نعني به الفطنة والحفظ، فالفطنة هي القدرة على الإدراك السريع والتمييز بين الأمور، أما الحفظ فهو عملية تذكر المعلومات واسترجاعها عند الحاجة، إذ هو قدرة الإنسان على التركيز والانتباه، فهو ليس مجرد حفظ ميكانيكي بل يشمل القدرة على التمييز والاستنتاج والفهم.

- اصطلاحًا: بعد ذكرنا للتعريفات اللغوية للذهن في المعاجم، يمكننا الانتقال الآن إلى المعنى الاصطلاحي له لضبط مفهومه.

عرّفه أنجوس جيلاتي وأوسكار زاريت (Oscar Zaret و Angus Gelati) كما يأتي: بالرغم من عدم وجود تعريف شامل وواضح للذهن، لا يمكننا من خلاله تحديد طبيعته على وجه الدقة، فإن لدينا بعض الأفكار عن وظيفته، فالذهن يمكننا من رؤية العالم والتصرف فيه بطريقة إرادية، فالبصر والسمع واللمس وكل الحواس الأخرى تحدث في الذهن، ويبدو أن الحركة التي تسعى بالفعل الحركي، والتفكير والتذكر والتخطيط³.

¹ ابن فارس، مقاييس اللغة، اعتنى به محمد عوض مرعب والأنسة فاطمة محمد أصلان، ط1، بيروت-لبنان، 2001، دار الإحياء التراث العربي، مادة (ذ ه ن) ص369.

² محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، بيروت، 1989، مكتبة لبنان، مادة (ذ ه ن) ص197.

³ إنجوس جيلاتي وأوسكار زاريت، الذهن والمخ، تر: جمال الجزيري، مراجعة وإشراف: إمام عبد الفتاح إمام، دط، القاهرة، 2001، المجلس الأعلى للثقافة، ص14-15.

الفصل الأول: المستوى الذهني للغة في الفكر البلاغي العربي القديم والفكر اللساني الغربي الحديث.

الذهن عبارة عن مجموعة من العمليات الداخلية التي يتم من خلالها إدراك العالم الخارجي، مع تفسير هذه المعطيات داخل العقل، كما تشمل عمليات عليا كالتفكير والتذكر والتخطيط، فهو قدرة كامنة أو استعداد قبلي يمكن المتكلم والسامع من استقبال المعطيات الحسية وفهمها، فيكون شرطاً أساسياً لحدوث الإدراك.

فالذهن يشمل عملية التفكير المنظمة التي تخضع لقوانين مثل الاستدلال والمقارنة والتحليل، وتمكن الفرد من إدراك المعارف في العالم الخارجي وإدراك الكلام.

- المستوى الذهني: على الرغم من تعدد الدراسات اللسانية والمصادر التي اطلعنا عليها، لم نجد تعريفاً صريحاً ومتكاملاً لما يمكن تسميته بـ (المستوى الذهني) عند كل من المتكلم والسامع، غير أن هذا المفهوم يمكن استنتاجه ضمناً من التصور اللساني الذي جاء به فيرديناند دي سوسير في ثنائية "الدال والمدلول" و "دورة التخاطب"، فهو إذن تلك العمليات الذهنية التي تتم عند كل من المتكلم والمستمع أثناء عملية الكلام وإنتاجه وفهمه، وهذا في إطار ما تصوّره "سوسير" في «كون اللغة نظاماً من العلامات قائماً على العلاقة بين الدال (الصورة الصوتية) والمدلول (الصورة الذهنية)»¹.

فعند المتكلم يتمثل في قدرته على تحويل المدلولات، أي الأفكار، إلى دوال لغوية مناسبة مع قواعد النظام اللغوي والحالة الذهنية للمستمع، بينما عند السامع يظهر على شكل القدرة على استقبال تلك الدوال الصوتية وتحويلها مرة أخرى إلى مدلولات قابلة للفهم، أي فكّ الرموز.

¹ ينظر: أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، دط، دب، 2008، ديوان المطبوعات الجامعية، ص127.

الفصل الأول: المستوى الذهني للغة في الفكر البلاغي العربي القديم والفكر اللساني الغربي الحديث.

وتتدرج هاتان العمليتان ضمن « دورة التخاطب التي تقوم على انتقال الرسالة من ذهن المتكلم إلى ذهن المستمع عبر وسيط صوتي، ويظهر أيضًا بين بنيتين ذهنيّتين متقابلتين، حين تُعاد داخل ذهن السامع عملية البناء التي أنجزها المتكلم، ولكن بعملية عكسية»¹.

إذًا، المستوى الذهني لا يتشكّل فقط في الربط بين الدال والمدلول، بل في القدرة على إعادة إنتاج المعنى ضمن مجموعة من المعطيات الذهنية المتداخلة، مثل الاعتقاد والإدراك التي نذكرها لاحقًا، وقد أشار إليها السكاكي في كتابه "مفتاح العلوم".

-وهناك فكرة أخرى- أن المدلول لا ينتقل جاهزًا، بل يُبنى من جديد داخل ذهن السامع اعتمادًا على قدرته على فكّ الترميز والشفرات اللغوية.

رابعًا: مفهوم الإدراك والاعتقاد لغة واصطلاحًا

تقوم العملية التواصلية على جملة من التفاعلات الذهنية التي يشترك فيها كل من المتكلم والسامع، حيث لا يتم فهم الكلام إلا عبر آليات داخلية تنظّم إدراكه وتحدد مضمونه، ويُعتبر كل من الإدراك والاعتقاد من أهم هذه الآليات، إذ يرتبط الأول بفهم المعطيات اللغوية، بينما يعكس الثاني ما يترسّخ في ذهن من تصورات وأحكام.

فإن دراسة هذين المفهومين تكتسي أهمية بالغة لفهم كيفية تشكّل المعنى والكلام في ذهن المتكلم والسامع أثناء التواصل، فمن الضروري ضبطهما لغة واصطلاحًا.

أ- الإدراك لغة:

¹ ينظر: دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، تر: صالح قرمادي وآخرون، دط، دب، 1910، دار العربية للكتاب، ص32.

جاء في معجم "مقاييس اللغة" لابن فارس أن معنى الإدراك من "درك": «أصل واحد يدل على لحوق الشيء بالشيء ووصوله إليه، ويقال: أدركت الشيء إدراكًا، ويقال: فرس درك الطريدة إذا كانت لا تفوته طريدة. ويقال: أدرك الغلام والجارية إذا بلغا، وتدارك القوم إذا لحق آخرهم أولهم.»¹

وجاء في "المعجم الوسيط" «أن الإدراك: أدرك الشيء: بلغ وقته، والثمر نضج، و-الصبي: بلغ الحلم، وفلان بلغ عمله أقصى الشيء، وجاء البشر: وصل إلى دركها، والشيء: لحقه، بلغه وناله، و-الشيء ببصره: رآه، و-المعنى بعقله فهمه، (داركه) مُدَارَكَة ودِراكا: لحقه و-أتبع بعضه بعضا- يقال: سير دراك متلاحق متواصل».²

نستنتج معنى الإدراك من خلال التعريفات اللغوية التي وظّفناها كما يأتي: الوصول، واللحوق، والبلوغ، والإحاطة بالشيء، والتتابع والاتصال. فالإدراك في اللغة هو لحاق الشيء والوصول إليه، ويتحوّل في بلوغ الغاية (أي الهدف) حسًا أو معنى، فيشمل الوصول الحسي مثل الرؤية، والوصول العقلي (الذهن) كالفهم.

ب- اصطلاحاً: أما في التعريف الاصطلاحي فهو «يدل أولاً على حصول صورة الشيء عند العقل، سواء كان ذلك الشيء مجرداً، أو مادياً، جزئياً أو كلياً، حاضراً أو غائباً، حاصلًا في ذات المدرك أو آلاته».³

يتبيّن من هذا التعريف أن الإدراك هو عملية عقلية نفسية يتم من خلالها تنظيم المثيرات الحسية وتفسيرها لإعطائها معنى، ما يمكّن الإنسان من فهم العالم الخارجي والتفاعل معه. وهذه

¹ ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (د ر ك) ص 366.

² مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الوسيط، ط4، 2004، دب، مكتبة الشروق الدولية، ج1، ص 281.

³ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دط، بيروت، لبنان، 1982، دار الكتاب اللبناني، ج1، ص 53.

الفصل الأول: المستوى الذهني للغة في الفكر البلاغي العربي القديم والفكر اللساني الغربي الحديث.

القدرة نفسها تمكّن السامع من فهم المعاني وإدراك العلاقات بين التراكيب، فهو يُكوّن بهذا الشكل عملية ذهنية تهدف إلى استيعاب الدلالات (أي المعنى) الكامنة في الكلام وليس سماعه فقط، أي فهم المعنى المقصود من الكلام من خلال تحليل العلاقات بين الكلمات المشكلة للخطاب في الذهن.

وبعد استكمال تعريف الإدراك لغة واصطلاحًا ننتقل إلى بيان مفهوم الاعتقاد لغة واصطلاحًا.

- مفهوم الاعتقاد اصطلاحًا:

أ- **الاعتقاد اصطلاحًا:** الاعتقاد في الاصطلاح حسب السكاكي «هو ما يظنه المتكلم فمثلاً في الخبري، قد يظن المتكلم أن المستمع خالي الذهن، وهو ليس كذلك، فكلامه يأتي حسب اعتقاده لا حسب إرادته الواعية في توظيف وجوه الحسن البلاغي في كلامه، فيكون كلامه صادرًا عن قصد وليس صدفة»¹، فيمكن أن نعبر عنه بعلم المتكلم، وهو شرط في تحقق البلاغة، وإن غاب يؤدي إلى عدم فهم الكلام عند السامع، فيكون السامع على علم بوجود الحسن في الكلام (أي التركيب) ومعتقدًا أن الكلام قاصد لهذه الأغراض المختلفة.

وهو مرتبط بالحالة الذهنية للمتكلم، إذ هو ما يستقر في ذهن المتكلم من تصورات أو أحكام قبل إنتاجه الكلامي، حيث يستحضر في ذهنه منظومة من الاعتقادات، والمستمع بدوره يكون عنصرًا فعالًا في فهم الكلام عبر إدراكه ومعرفته له.

المبحث الثاني: البلاغة العربية نشأتها وتطورها وأعلامها وعلومها والفائدة منها

¹ ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم، ص226-227.

بعد الانتهاء من المبحث الأول الذي خصصناه لتحديد أهم المصطلحات المرتبطة بموضوع المذكرة لغةً واصطلاحاً، بما أسهم في بناء أرضية مفاهيمية واضحة ومتكاملة، سننتقل الآن في هذا المبحث إلى تناول البلاغة العربية من زاوية أوسع وأعمق من خلال التعريف بأعلامها البارزين ومراحل تطورها عبر العصور، إضافة إلى الوقوف عند علومها الأساسية التي شكلت بنيتها المعرفية، وبذلك يكون هذا المبحث استكمالاً لما سبق وانتقالاً بالمبحث من التأصيل النظري للمفاهيم إلى توسيع دائرة النظر في البلاغة العربية من حيث نشأتها وتطورها ووظيفتها.

أولاً: نشأة البلاغة العربية وتطورها من القرن الثاني للهجرة إلى القرن السابع للهجرة

نعلم أن لنشأة كل علم دوافع وعوامل، وأنه لا يوجد علم ولد من العدم، فإذا تحدثنا عن علم البلاغة في مساره الطويل، حيث نشأة كل علم تمر عبر مراحل، كذلك البلاغة العربية يمكن تقسيم مراحل ظهورها إلى ثلاث مراحل: الأولى تتمثل في نشأتها، ثم المرحلة الثانية المتمثلة في تطورها، أما المرحلة الثالثة فنضجها، أي مرحلة استقرارها أصبح علماً مستقلاً عن غيره، اتضحت معالمه وقواعده، وذلك على يد السَّكَّاكِي في كتابه مفتاح العلوم. ولتطور البلاغة عوامل، فنجد مصطفى صادق الرافعي في كتابه إعجاز القرآن والبلاغة النبوية يقول: "إن القرآن كان علم البلاغة عند العرب ثم صار بعدهم بلاغة هذا العلم"¹، يعني أن العرب في زمن نزول القرآن كانوا يقيسون البلاغة من خلاله، فالقرآن لم يكن مجرد نص بليغ، بل عبارة عن مرجع أعلى لتعريف هذه البلاغة، وكأنه هو نفسه علم البلاغة، ثم بعد ظهور علم البلاغة أصبح علم مستقل أصبح القرآن الكريم أعظم نموذج تطبيقي لهذا العلم. ففكرة هذا القول تتلخص في أن القرآن انتقل من كونه مصدر البلاغة إلى كونه أسمى مثال لها، وبذلك يكون القرآن ميزان البلاغة عند العرب، ثم أصبح فيما بعد

¹ مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، بيروت، 1999، دار الكتاب العربي، ص 177.

أسمى نموذج تطبيقي لقواعدها. إذ نشأت البلاغة العربية في أول أمرها كانت بدافع ديني، أرادوا من خلالها تبين إعجاز القرآن الكريم.

وإذا تحدثنا هنا عن تطور البلاغة، فهناك كتب أشارت لموضوعاتها، وخير مثال على ذلك كتاب سيبويه، المتوفى سنة 180 للهجرة، وهو معروف بكونه كتاباً في النحو، إلا أنه لا يخلو من إشارته لبعض القضايا البلاغية، من ذلك قوله في الحذف، والذي يُدرج ضمن المواضع البلاغية: «اعلم أنهم مما يحذفون الكلمة وإن كان أصلها في الكلام غير ذلك، ويحذفون ويعوّضون ويستغنون بالشيء عن الشيء الذي أصله في كلامهم أن يُستعمل حتى يصير ساقطاً»¹ يظهر من خلال قول سيبويه أن ملامح البلاغة العربية كانت حاضرة في كتب التراث منذ وقت مبكر، حتى قبل أن تتطور البلاغة وتتبلور كعلم مستقل بعد ذلك.

فحديثه عن الحذف والتعويض والاستغناء ليس مجرد وصف نحوي، بل هو في جوهره حديث عن الاقتصاد في التعبير وحسن اختيار اللفظ، وهي من أهم مبادئ البلاغة، أي إن البلاغة كانت مضمّنة في التفكير اللغوي القديم عند النحاة الأوائل. لقد عالج سيبويه في كتابه بعض المباحث البلاغية، غير أن الدارسين يعدّون الجاحظ من أوائل الذين أسسوا للبلاغة العربية، فمنذ أن حدّد الجاحظ أولى ملامح النظر البلاغي في التراث العربي، لم تعد البلاغة مجرد زخرف أو ذوق لغوي أو تزيين للقول، بل غدت علماً واسعاً تتداخل فيه الفكرة مع الصورة، والبيان مع الأسلوب.

ومع انتقال هذا العلم من مرحلة إلى مرحلة، كأننا ننقل من عالم إلى عالم؛ من عالم البيان الأول الذي تأسست فيه المفاهيم على يد الجاحظ ومن جاء بعده، إلى عالم آخر تتطور فيه البلاغة

¹ سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام هارون، ط1، دت، بيروت، دار الجيل، ص24.

الفصل الأول: المستوى الذهني للغة في الفكر البلاغي العربي القديم والفكر اللساني الغربي الحديث.

لتأخذ أبعادًا أكثر عمقًا. وبهذا تبقى البلاغة رحلة فكرية متواصلة، كل محطة فيها تمهّد لما بعدها، وكل عالم يفتح بابًا لعالم جديد أكثر اتساعًا.

الآن نتطرق إلى التطور الذي حدث للبلاغة من القرن الثاني للهجرة إلى القرن السادس للهجرة، وهذا ببداية حديثنا بالجاحظ وننهيهِ بالسكاكي. يمكن اعتبار الجاحظ، المتوفى سنة 255 للهجرة، المؤسس الأول للبلاغة العربية على حسب آراء بعض الدارسين، وهذا من خلال كتابه البيان والتبيين، فنجد أنه قد تطرق لموضوعات البلاغة والفصاحة، وركّز على جمال اللفظ والمعنى، وهو أول من أولى العناية الفائقة بالبلاغة.

جاء بعد الجاحظ عبد الله بن المعتز، المتوفى سنة 296 للهجرة، واسم كتابه البديع، وورد في مقدمة محقق كتابه هذا أن "كتاب البديع للخليفة العباسي أبي العباس عبد الله بن المعتز، ويكشف عن لون جديد من ألوان البلاغة في البيان والبديع، وفي النثر والشعر، وهذا اللون لم يُسبق إليه قبل ابن المعتز. وهو القائل: «ما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد»¹

ومن خلال كتابه هذا نجده قد دوّن الفنون البلاغية وصرح بسبب تأليفه " أن ما قدّمه في الكتاب هو بعض ما وجده في القرآن واللغة والأحاديث وغيرها، وشعر المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون بالبديع والبديع موجود منذ القدم.²

¹ أبو العباس عبد الله بن المعتز، كتاب البديع، تح: عرفان معارجي، ط1، بيروت، لبنان، 2012، مؤسسة الكتب الثقافية، ص05.

² المرجع السابق، ص09.

الفصل الأول: المستوى الذهني للغة في الفكر البلاغي العربي القديم والفكر اللساني الغربي الحديث.

وهو ما جعل البديع خمسة أنواع: الاستعارة، التجنيس، المطابقة، ردّ العجز على الصدر، والمذهب الكلامي، ألف كتبه في البلاغة وسماها البديع، أي إن البديع يُقصد به البلاغة في كتابه هذا.

بعده جاء أبو هلال العسكري، المتوفى سنة 395 للهجرة، صاحب كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر. في كتابه هذا تناول موضوعات بلاغية مثل الإيجاز والإطناب والتشبيه والبديع.

وابن سنان الخفاجي، المتوفى سنة 466 للهجرة، في كتابه سر الفصاحة، نجد أنه قد فصل بين الفصاحة والبلاغة، وحدد لكل منهما تعريفاً، حيث بيّن الفرق بينهما؛ فالفصاحة عنده خاصة بالألفاظ، والبلاغة باللفظ والمعاني. ويقول ابن سنان الخفاجي: "الفرق بين الفصاحة والبلاغة أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفاً للألفاظ مع المعاني".¹

أشرنا في مرحلة نموّ البلاغة العربية إلى أهم الأعلام التي تمثلها، من بينهم ابن المعتز، والرماني، وأبو هلال العسكري، وابن سنان الخفاجي. بعد أن تمّ تحديدها، سننتقل إلى مرحلة الازدهار، حيث تجمع معظم الدراسات البلاغية أن ازدهارها كان على يد عبد القاهر الجرجاني، المتوفى سنة 471هـ.

يُعدّ عبد القاهر الجرجاني أول من وضع حدوداً وتعريفات للبلاغة، ووضع قواعد وأسساً لها، وهذا يظهر لنا جلياً من خلال كتابيه "دلائل الإعجاز" في علم المعاني و"أسرار البلاغة" في علم البيان. من خلال عناوين كتابيه يتضح لنا مدى اهتمامه بالبلاغة.

¹ ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، صححه وعلق عليه عبد المنال الصعدي، دط، مصر، 1952، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، ص59.

ما فهمناه من كتاب "دلائل الإعجاز" «هو أنه أسس لنظرية النظم، وهذا ما يبين لنا أن البلاغة ليست في اللفظ فقط، ولا في المعنى فقط، ولا هي في اللفظ والمعنى معاً، وإنما هي في نظم الكلام. يقول في هذا "أن ليس النظم سوى تعليق الكلم ببعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض».¹

ونعرف أن نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني هي مزج بين البلاغة والنحو، والنظم عنده هو توخي معاني النحو وأحكامه في الكلام. يقول: «اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه، وهو توخي علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخلّ بشيء منها».²

النظم عند الجرجاني هو وضع الكلام الوضع الذي يقتضيه علم النحو، يكون مطابقاً للمقام (النظم = علم النحو + البلاغة)، أي مطابق لمقتضى الحال.

أما كتابه "أسرار البلاغة" فقد يُعدّ ركيزة علم البيان، فيه ركّز على الاستعارة والتشبيه والمجاز، أي درس كيفية انتقال الألفاظ من المعاني الحقيقية إلى معانٍ مجازية. وبالعودة إلى كتابه هذا، نجده يركز على التطبيق، وفيه مزج، وفيه صرّح بهدفه ومقصده، ويقول: «واعلم أن غرضي في هذا الكلام الذي ابتدئ به، أنه الأساس الذي وضعته، أن أتوصل إلى بيان أمر المعاني، كيف تتفق وتختلف، ومن أين تجتمع وتفترق، وأفصل أجناسها وأنواعها، وأتتبع خاصها ومشاعها، وأبين

¹ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، دط، القاهرة، مكتبة الخانجي -

القاهرة، ص 04.

² نفسه، ص 81.

أحوالها في كرم منصبها من العقل...»¹. فبالعودة إلى كلا كتابيه، نجده لم يفرّق بين علوم البلاغة: المعاني والبيان والبدیع.

الزمخشري توفي سنة 538هـ، وكتابه هو "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل". في كتابه هذا نجده تحدث عن بعض القضايا والمباحث البلاغية، فهو من ميّز بين علم المعاني وعلم البيان، هنا سنتطرق لقول شوقي ضيف في كتابه "البلاغة: تطور وتاريخ" حول تطور البلاغة، حيث إنه يرى أن البلاغة وتطورها يتوقف عند الجرجاني والزمخشري، ويرى أنه "لم يعد هناك إبداع في البلاغة بعد الجرجاني والزمخشري، وإنما كانت مرحلة جمع وتصنيف وتعقيد وفصل للبلاغة عن الأدب، وسمّى هذه المرحلة مرحلة التعقيد والجمود في البلاغة."²

السكاكي (أبو يعقوب السكاكي ت626هـ)، في كتابه "مفتاح العلوم"، ونعلم أن كتابه هذا «قسمه إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول خصصه لعلم الصرف، والقسم الثاني لعلم النحو، أما القسم الثالث فهو لعلمي المعاني والبيان».³

وتطور البلاغة وبلوغ ذروتها كان من خلال هذا الكتاب في القرن السادس للهجرة، حيث قام كثير من الباحثين بدراسته وشرحه وتلخيصه، واعتنوا به عناية كبيرة، كأنه لم يؤلف في البلاغة كتاب غيره، وكل من جاء بعده سار على طريقته ونهجه، وقاموا بشرحه وتلخيصه، من بينهم القزويني المتوفى سنة 739هـ.

¹ عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، صححه محمد عبده، ط1 بيروت-لبنان، 1988، دار الكتب العلمية، ص19.

² شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ط8، القاهرة، 1990، دار المعارف، ص271.

³ السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه وعلق عليه نعيم زرزور، ط2، بيروت-لبنان، 1987، دار الكتب العلمية، ص7-8.

الفصل الأول: المستوى الذهني للغة في الفكر البلاغي العربي القديم والفكر اللساني الغربي الحديث.

وخلاصة قولنا من هذا كله أن البلاغة مرت بعدة مراحل، وتناولها الكثير من الباحثين العرب، ويمكن أن نقول هنا إن أول من أرسى قواعدها ومبادئها هو عبد القاهر الجرجاني، ولكنه لم يفرق بين علوم البلاغة ولم يبوبها، والذي لم يرق به الجرجاني قام به السكاكي في كتابه "مفتاح العلوم". هذا فيما يخص تطور البلاغة العربية.

ثانياً: أعلام البلاغة العربية مع مؤلفاتهم:

بعد أن تطرقنا آنفاً إلى نشأة وتطور البلاغة، الآن نحدد من هم أشهر أعلامها من القرن الثاني للهجرة إلى السادس للهجرة، كما ذكرناهم سابقاً، وهم كما يأتي:

- 1- الجاحظ، (ت255هـ)، كتابه "البيان والتبيين".
- 2- ابن المعتز، (ت296هـ)، كتابه "البديع".
- 3- أبو هلال العسكري، (ت395هـ)، كتابه "الصناعتين: الكتابة والشعر".
- 4- ابن سنان الخفاجي، (ت466هـ)، كتابه "سر الفصاحة".
- 5- عبد القاهر الجرجاني، (ت471هـ)، كتابه "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز".
- 6- السكاكي، (ت626هـ)، كتابه "مفتاح العلوم".
- 7- القزويني، (ت739هـ)، كتابه "تلخيص المفتاح".

ثالثاً: علوم البلاغة العربية (علم المعاني، البيان، والبديع):

إن علم البلاغة لم يكن وليد الصدفة، بل جاء نتيجة جهود علمية متراكمة، كانت غايتها فهم أسرار البيان العربي واستكشاف الأساليب التعبيرية المتنوعة. فقد أسهم العلماء في ترسيخ مفاهيم البلاغة وتحديد مجالاتها ومباحثها، مما أتاح لها أن تستقر لتصبح علماً قائماً بذاته من علوم اللغة العربية.

لابد لنا الوقوف لمعرفة علوم البلاغة العربية ومحاولة إبراز أثرها في تحليل النصوص وفهمها، فنجد أن من قسم البلاغة هو السكاكي في كتابه "مفتاح العلوم"، وجعلها ثلاثة، وهي كالآتي: علم المعاني، علم البيان، علم البديع.

1- **علم المعاني:** هو أحد فروع علم البلاغة في اللغة العربية، يهتم بدراسة كيفية صياغة الكلام بحيث لا بد من أن يكون مطابقاً لمقتضى الحال، أي أن التعبير يكون مناسباً ومراعياً للسياق الذي يقال فيه، وغايته هي جعل الكلام أكثر تأثيراً ووضوحاً. هذا يكون من خلال اختيار التراكيب والأساليب التي تؤدي المعنى بأدق صورة.

عرّفه السكاكي بأنه: "اعلم أن علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وهو وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليُحتَرز بالوقوف عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال".¹

يبين السكاكي أن علم المعاني يقوم على دراسة خصائص التراكيب اللغوية من حيث قدرتها على أداء المعنى أداءً ملائماً ومناسباً للمقام، مع مراعاة الجوانب الجمالية والأساليب المتنوعة في التعبير، وذلك بهدف تجنب الخطأ في توظيف الكلام وضمان مطابقته لمقتضى الحال، أي إن استعمال المتكلم للكلام لا بد من أن يكون مناسباً للمقام، فلكل مقام مقال، وما يصلح في موقف قد لا يصلح في موقف آخر.

كما نجد أنه قسم علم المعاني إلى قانون الخبر وقانون الطلب، "وهذا العلم ينحصر في ثمانية أبواب:

1- أحوال الإسناد الخبري.

2- أحوال المسند إليه.

¹ السكاكي، مفتاح العلوم، ص 161.

3- أحوال المسند.

4- أحوال متعلقات الفعل.

5- القصر.

6- الإنشاء.

7- الفصل والوصل.

8- الإيجاز والإطناب والمساواة.¹

وهذه تكمن في أبرز موضوعات علم المعاني.

2- علم البيان: يعدّ علم البيان فرعاً من فروع البلاغة، وهو العلم الذي يهتم بتوضيح

المعاني وإبرازها بأساليب وطرائق مختلفة تساعد على إيصال الفكرة بوضوح وجمال. ويهتم هذا العلم

بدراسة الطرائق التي يُعبّر بها عن المعنى الواحد بصورة متعددة ومتنوعة، مع اختلاف درجة

الوضوح والتأثير.

ومن أبرز موضوعاته: التشبيه، والاستعارة، والكناية، حيث نجد أن هذه الأساليب تسهم في

تقريب المعنى إلى ذهن السامع، وتجعل الكلام أكثر تأثيراً وبلاغة وإقناعاً.

عرّفه السكاكي بأنه: "البيان هو معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة، بالزيادة في

وضوح الدلالة عليه وبالنقصان، ليُحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام

المراد منه".²

يبين السكاكي أن علم البيان يُعنى بدراسة الطرق المختلفة للتعبير عن المعنى الواحد من

حيث درجة وضوحها وخفائها، وهذا بغية تمكين المتكلم من اختيار الأسلوب الأنسب الذي يحقق

¹ القزويني، تلخيص المفتاح، ط1، باكستان، 2010، مكتبة البشري، ص12.

² السكاكي، مفتاح العلوم، ص162.

الفصل الأول: المستوى الذهني للغة في الفكر البلاغي العربي القديم والفكر اللساني الغربي الحديث.

تمام المقصد أو تمام المراد، ويضمن مطابقة الكلام لمقتضى الحال ولمقتضى المعنى دون إخلال أو تقصير.

أي إن علم البيان هو الكشف عن القواعد والشروط التي من خلالها يتم إنتاج المعنى، وهذا المعنى ينتج من خلال العلاقة بين اللفظ والمعنى.

المعنى ينتج من خلال العمليات الذهنية التي تتم في الذهن، ومن خلال الحركات المتبادلة بين الدال والمدلول. هنا في علم البيان نحصل على المعنى الذهني أو الدلالة الذهنية من خلال صدور الكلام من المتكلم، يتلقاه المستمع ويفهمه.

يتم ذلك من خلال ما يحدث في ذهنيهما من دلالات ومعانٍ خفية غير مباشرة، يستخلصها من السياق، والمستمع هو من سيفهم المعنى ويستفيد منه، إذ يساعده على ذلك السياق من أجل معرفة قصد المتكلم.

هنا يتم الانتقال من الظاهر إلى الخفي، وهو القصد الموجود في ذهن المتكلم. هذا ما أشار إليه القزويني في تعريفه لعلم البيان، يقول: «وهو علم يُعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه، ودلالة اللفظ إما على تمام ما وضع له أو على جزئه أو على خارج عنه، وتسمى الأولى وضعية، وكل من الآخرين عقلية، وتقيد بالمطابقة، والثانية بالتضمن، والثالثة بالالتزام، وشرطه اللزوم الذهني، ولو لاعتقاد المخاطب بعرف أو غيره، والإيراد المذكور لا يأتي بالوضعية، لأن السامع إن كان عالماً بوضع الألفاظ، لم يكن بعضها أوضح، وإلا لم يكن كل واحد دالاً عليه. وتأتي بالعقلية، لجواز أن تختلف مراتب اللزوم في الوضوح.»¹

¹ القزويني، تلخيص المفتاح، ص 81.

أي إن إنتاج المعنى يكون بطرائق معينة ومختلفة لوضوح المعنى، وأشار إلى الدلالات، من بينها الدلالة الوضعية، وهي دلالة اللفظ على ما وضع له، ودلالة التضمنين والالتزام، وهذان الأخيران دلالات عقلية، تقوم على الذهن والإدراك والقصد والتصور والنية، فهي تصدر من المتكلم إلى المستمع ليفهمها ويستوعبها، هذا كله من خلال ما يحدث في ذهنه من دلالات خفية ضمنية، ودلالة الالتزام، منها يفهم المعنى، وهذا يتحقق من خلال الاستعارة والتشبيه والكناية.

3- علم البديع:

يعدّ علم البديع فرعاً من فروع البلاغة، يهتم بتحسين اللفظ أو الكلام وتزيينه من الناحيتين اللفظية والمعنوية، بما يضيف عليه جمالاً وروعة، ويزيد من تأثيره في نفس المستمع. يقوم هذا العلم على دراسة المحسنات البديعية مثل الجناس والطباق والمقابلة، التي تجعل الأسلوب أو التعبير ملائماً، ومن خلاله يتم التأثير في المستمع.

فالسكاكي لم يذكر علم البديع علماً مستقلاً في كتابه، ولم يفرد على أنه علم مستقل لحاله، وإنما جعله تابعاً لعلمي المعاني والبيان، فهو تابع لهما لتحسين الكلام. فيقول فيه: «وإذ قد تقرر أن البلاغة بمرجعيتها، وأن الفصاحة بنوعيتها مما يكسو حلة التزيين ويلقيه أعلى درجات التحسن... لقصد تحسين الكلام، فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها، وهي قسمان: قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللفظ.»¹

يرى السكاكي أن البلاغة تقوم على الفصاحة، وأن الفصاحة تكسب الكلام جمالاً، غير أن هناك ما يزيد من تحسين الكلام وتزيينه، وهو ما يعرف بعلم البديع. وما يحسن الكلام ينقسم إلى قسمين: قسم يرجع للمعنى، وقسم يرجع لللفظ.

¹ السكاكي، مفتاح العلوم، ص423.

الفصل الأول: المستوى الذهني للغة في الفكر البلاغي العربي القديم والفكر اللساني الغربي الحديث.

أما ما يقصده من خلال قوله إن البلاغة بمرجعيتها هنا، فهما علم المعاني والبيان، أما الفصاحة في اللفظ والمعنى [عندما قال قسم يرجع إلى المعنى وقسم للفظ] وعنده نجد أن البديع المعنوي خُصت فيه المطابقة والمقابلة والمشاكلة وغيرها، أما البديع اللفظي فمثل الجناس أو التجنيس وغيره، هذا فيما يخص علم البديع.

رابعاً: الفائدة من البلاغة العربية:

بعد التعرف على علوم البلاغة وأقسامها، يبرز جانب آخر لا يقل أهمية، يتمثل في بيان مكانة البلاغة وقيمتها، مما يدفع إلى الوقوف عند أهميتها ودورها في تطوير مهارات التعبير والفهم، حيث إن البلاغة لها فائدة كبيرة في اللغة العربية، لذلك تعلمها مهم جداً.

ف نجد أبا هلال العسكري يقول بخصوص أهميتها ما يلي: "اعلم، علمك الله الخير وذلك عليه، أن أحق العلوم بالتعلم وأولها بالتحفظ بعد المعرفة بالله جلّ جلاله وجلّ ثناؤه، علم البلاغة ومعرفة الفصاحة، الذي به يُعرف إعجاز كتاب الله تعالى الناطق بالحق...هتكت حجة الشك بقيمتها"¹.

من خلال قول أبي هلال العسكري يتضح لنا أن أهمية تعلم البلاغة تتجلى في كونها وسيلة لفهم إعجاز القرآن الكريم وتذوق جماله، كما أنها تنمي قدرة المتعلم على التعبير الدقيق المؤثر، وتساعد كذلك على تحليل النصوص وفهم غاياتها الخفية والعميقة، والتميز بين الأساليب والتعبير، فهي تكسب المتعلم قدرة على الإقناع، مما يجعلها أداة أساسية في تنمية التفكير والبيان معاً.

أي إن قيمة تعلم البلاغة العربية تتجلى فيما يأتي:

¹ أبو هلال العسكري، الصناعتين "الكتابة والشعر"، ص07.

الفصل الأول: المستوى الذهني للغة في الفكر البلاغي العربي القديم والفكر اللساني الغربي الحديث.

- تنمي القدرة على الإقناع والتأثير في الآخرين من خلال حسن اختيار الألفاظ.
 - تكسب المتعلم مهارة التحليل الأدبي والتعبير المتنوعة.
 - معرفة جمال اللغة العربية من خلال إدراك أسرارها البيانية.
 - تطور القدرة على فهم النصوص وفهم معانيها العميقة.
 - تمكن المتعلم من التعبير بأسلوب واضح يجمع بين الدقة والتأثير.
- وخلاصة القول: البلاغة العربية تعد أداة ووسيلة أساسية لفهم اللغة العربية استعمالاً وتذوقاً.

المبحث الثالث: نظرة البلاغيين القدماء للمستوى الذهني:

بعد استعراض تطور البلاغة العربية، والوقوف عند أبرز أعلامها، وما حققته من فوائد في تقويم اللسان وتهذيب الأساليب، يتبين لنا أن هذا لم يكن مجرد قواعد شكلية تهتم بزخرفة القول، بل كانت في جوهرها قائمة على أسس عقلية وذهنية حقيقية. فالبلاغيون القدماء لم ينظروا إلى اللغة بوصفها ألفاظاً متراسة فحسب، وإنما نظروا إليها بزاوية مختلفة، فهي نشاط ذهني يعكس قدرة المتكلم على التصوير والتأثير والإدراك والتحليل وغيرها من العمليات الذهنية.

أولاً: المستوى الذهني للغة عند الجاحظ (255هـ)

لا يبدو المستوى الذهني للغة جلياً في مقولة الجاحظ، غير أنه يمكن الكشف عنه من خلال القراءة التحليلية لها. قال الجاحظ: «لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل ضرب من المعاني ضرب من الأسماء، فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية».¹

يقوم هذا النص على فكرة محورية مفادها أن لكل نوع من المعنى صياغة تناسبه، وهذا لا يقف عند حدود الألفاظ فقط، بل يتجاوز ذلك إلى إدراك المتكلم للمعنى وتقديره لحال السامع (ذهنه)، واختياره الواعي للأسلوب المناسب. فالمتكلم يقوم بتصنيف ذهني للمعاني (السخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل)، وهذا يدل على أن المعاني ليست في درجة واحدة، بل تُدرك ذهنيًا بدرجات متفاوتة.

¹ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان، تح: عبد السلام هارون، ط2، القاهرة، مصر، 1943، مكتبة مصطفى البابلي الحلبي وأولاده، ج1، ص423.

الفصل الأول: المستوى الذهني للغة في الفكر البلاغي العربي القديم والفكر اللساني الغربي الحديث.

هنا يظهر العمل الذهني لدى المتكلم من خلال عملية الاختيار وتقسيم المعنى في ذهنه قبل صياغته للسامع، ويمكن تسمية هذا النشاط الذهني بعملية الاختيار الواعي. ويظهر أيضًا في قوله: «لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ»، أي إن المتكلم لا يتكلم عفويًا، بل يقوم باختيار لفظ يناسب ما في ذهنه من معنى، فهذا نوع من الوعي والتخطيط الذهني للكلام.

كما تتجلى مراعاة المقام أو الحال، وهو مركز العمل الذهني؛ فقوله: «الإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية» يُعدّ من أهم المواضع التي يظهر فيها المستوى الذهني، لأنه يتضمن تقدير الحالة الذهنية للمخاطب، واتخاذ قرار: هل يُصرّح أم يُكني؟ وهذا لا يحدث إلا عبر عملية ذهنية قائمة على التقدير والاختيار.

استخلصنا من كلام الجاحظ أن المستوى الذهني للمتكلم يظهر في عملية تصنيف الكلام أو المعنى في ذهن المتكلم، وتحديد الهدف أو الغرض من الكلام، مع مراعاة الحالة الذهنية للسامع، واختيار الأسلوب المناسب مثل (التصريح أو التلميح). وهكذا تكون اللغة عنده نشاطًا عقليًا ذهنيًا منظمًا سابقًا على التلفظ، وليست مجرد ألفاظ.

أما المستوى الذهني للسامع، من خلال المقولة السابقة، فيتحدد فيما يأتي:

مثلا لماذا يختار المتكلم الكناية في كلامه ولا يختار الكلام المباشر؟ لأنه يرى أو يفترض أن المتلقي قادر على الفهم، ويمتلك خلفية ذهنية تسمح له بفهم المعنى؛ فالكناية تحتاج جهدًا ذهنيًا من السامع، بينما الإفصاح (الكلام المباشر) يقلل من هذا الجهد، فالكلام الصريح يوجّه لمن تكون الحالة الذهنية عنده بسيطة، أي خالي الذهن.

نفهم من قول الجاحظ أن هناك شراكة ذهنية بين عنصري العملية التواصلية (المتكلم والمستمع)، وأنه يعكس الوعي الذهني للمتكلم بدرجاته، واختياره الأسلوب نظراً للحالات الذهنية لدى السامع، وافترضه لقدرة المتلقي على الفهم، فهكذا تكون اللغة عنده فعلاً ذهنيًا تواصلياً.

كحوصلة لما حللناه، يكشف قول الجاحظ عن حضور مبكر لما يُعرف بالمستوى الذهني للغة، حيث يجعل إنتاج الكلام قائماً على عمليات ذهنية تتمثل في عملية تصنيف المعاني، ومراعاة المقام (الحالة الذهنية للسامع)، واختيار الأسلوب المناسب. وهو ما يفترض بدوره سامعاً أو متلقيًا يمتلك كفاءة ذهنية تمكّنه من فهم درجات التعبير بين الكلام المباشر وغير المباشر (الكنائية مثلاً).

ونستدلّ في موضع آخر بالقول الذي نقله الجاحظ، الذي يمكن من خلاله استنتاج المستوى الذهني للغة عند المتكلم والمستمع، إذ قال بشار بن المعتمر: «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة مقاماً، حتى يقسّم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسّم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات»¹.

تكشف المقولة عن تصوّر ذهني عميق، حيث لا يُنظر إلى الكلام بوصفه بنيةً لفظيةً فقط، بل نتاجاً لعمليات عقلية معقّدة تقوم على التقدير والموازنة بين المعاني والمقامات والمخاطبين. فالمتكلم عنده مشارك في العملية التواصلية وفاعل ذهني يضبط كلامه وفق قدرات المتلقي وظروف الحال، مما يجعل اللغة عملية ذهنية قائمة على التكيف، ويتحدّد السامع بدوره عنصراً فاعلاً أيضاً في هذه العملية، إذ يتحدّد فهمه لما يُقال بناءً على مستواه الذهني وحالته النفسية.

¹ الجاحظ، البيان والتبيين، تح: محمد عبد السلام هارون، ط7، القاهرة، مصر، 1998، مكتبة الخانجي للطباعة، ج1، ص76.

نستنتج المستوى الذهني للغة عند الجاحظ (ت 255هـ):

- 1- المتكلم: هو قدرة المتكلم على تقدير وموازنة في الكلام، وهذه من العمليات الذهنية التي تحدث في ذهنه قبل إخراجها للكلام؛ فاللغة عنده ليست مجرد تعبير، بل نشاط ذهني قائم على التقدير. فالمتكلم لا يقول الكلام مباشرة، وإنما يختار المعنى المناسب والصيغة المناسبة وفق الحالة الذهنية للسامع، وهذا ما وافق عند السكاكي مفهوم "مقتضى الحال".
- 2- السامع: يعمل السامع بدوره على تفسير الكلام ومحاولة فهمه وتأويله، ويعيد بناءه في ذهنه حسب قدراته الذهنية، بتوظيف الإدراك. فلكل سامع قدر، أي مستوى من الحالة الذهنية التي تسمح له بفهم الكلام؛ إذ إن الفهم مرتبط بالمستوى الذهني، فإذا لم يراع المتكلم الحالات الذهنية يحدث خلل في الفهم.

استنتجنا المستوى الذهني للغة عند الجاحظ هو قدرة المتكلم على اختيار اللفظ المناسب،

ومراعاة حال السامع، وقدرته على الفهم.

ثانياً: المستوى الذهني للغة عند عبد القاهر الجرجاني (471هـ)

ومن هذا المنطلق نتجه في هذا المبحث إلى استجلاء نظرة البلاغيين القدماء للمستوى الذهني، ويمكن توظيف آراء عبد القاهر الجرجاني في الكشف عن هذا المستوى من خلال نظريته في النظم، التي تبرز أن المعنى ثمرة ترتيب عقلي سابق على الترتيب اللفظي عند المتكلم، وأنه تحدث في ذهنه عملية اختيار للتركيب نظراً للحالة الذهنية للسامع كي يوجه له الكلام، ويجعل البلاغة قائمة على تنظيم المعاني في الذهن قبل صياغتها في الألفاظ. فهكذا يكون قد ربط البلاغة بالنظم العقلي للمعاني، فرأيناه يخدم موضوعنا، فاستشهدنا به رغم أنه لم يكن الموضوع الرئيسي للمبحث.

يقول الجرجاني في نظرية النظم أيضاً: « ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض»¹، ويعرف الجرجاني نفس النظرية في موضع آخر على هذا النحو:

«اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه. النظم هو توخي علم النحو، تعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي تُهجت، فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رُسمت لك، فلا تُخلّ بشيء منها»²

يتمثل المستوى الذهني في مضمون التعريفات فيما يأتي: ترتيب المعاني في النفس أولاً، ثم ترتيب الألفاظ وفق تلك المعاني، فالمتكلم يفكر في المعاني، فيقوم بترتيبها ذهنياً بحسب العلاقات النحوية، ثم يعبر عنها لغوياً. فقولُه بضرورة توخي النحو يعني ضرورة اختيار العلاقات مثل التقديم

¹ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي - القاهرة، ص4.

² عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص81.

الفصل الأول: المستوى الذهني للغة في الفكر البلاغي العربي القديم والفكر اللساني الغربي الحديث.

والتأخير والفاعلية. ونظرًا للحالة الذهنية للسامع، فإن هذه لا تُدرك في اللفظ فقط، بل تُبنى في
الذهن أولًا.

لا يضع المتكلم الكلمات عشوائيًا، بل يحدد في ذهنه العلاقات قبل النطق بها، كما أنه
يراعي المعنى في تأدية الكلام، لأنه هو الذي يفرض شكل العبارة عنده. فالمتكلم له حرية اختيار
صيغة التركيب التي يريد لها نظرًا لحال السامع، فيقدم ويؤخر ويحذف. فمثلاً: "جاء محمد" و"محمد
جاء"، لا يكمن الفرق في اللفظ فقط، بل ناتج عن اختلاف القصد الذهني.

ومن خلال تحليلنا لهذين التعريفين، وصلنا إلى فكرة مفادها أن المتكلم له قصد ذهني،
ويختار التراكيب وفقه، فهكذا تكون البلاغة عنده ليست في الألفاظ ذاتها، وإنما في كيفية تمثيلها
لما هو موجود في الذهن. وفي المقابل، يجب أن نذكر أن الألفاظ لا تُبنى فقط على المعاني
الموجودة في ذهن المتكلم، بل وفق ما يتصوره المتكلم من حال السامع الذهنية، لكي يفهم ويؤول ما
يقال له دون لبس.

يتضح لنا من نظرية النظم عند الجرجاني أن العملية التواصلية لا تُفهم بوصفها إنتاجًا
فرديًا للمعاني أو للكلام عامة، بل هي نشاط تواصلية يقوم على استحضار المتكلم لذهن السامع
وتقدير حالته الإدراكية (هل يدرك ما يقال له؟)، ومن ثم اختيار البنية اللغوية (المادية) التي تحقق
أكبر قدر من الإفهام. وهكذا يظهر لنا أن المستوى الذهني للغة عملية ذهنية سريعة ومشاركة بين
عنصرين من عناصر التواصل (المتكلم والمستمع)، لا مجرد عملية سابقة للتعبير.

تتمحور فكرة الجرجاني التي استخلصناها فيما يأتي:

- اللغة تُبنى في الذهن أولًا.
- المتكلم يراعي الحالة الذهنية للسامع كي يبني كلامه.

الفصل الأول: المستوى الذهني للغة في الفكر البلاغي العربي القديم والفكر اللساني الغربي الحديث.

- نجد هذه الفكرة عند السكاكي في قاعدة "مقتضى الحال".
- تُبنى الاختيارات البلاغية على الحالة الذهنية للمتلقى (التقديم، التأخير، الحذف)، فلا تُختار عشوائياً، بل بحسب ما يعرفه السامع: أهو خالي الذهن، أم متردد، أم ذكي، أم قوي، أم غبي.. الخ.

ويتجلى المستوى الذهني للغة من خلال جعل المعنى العقلي أساساً لبناء أي كلام؛ حيث يرى أن ترتيب الألفاظ عملية ذهنية يقوم بها المتكلم في ذهنه، تابعة لترتيب المعاني في النفس (الذهن)، وأن المتكلم يتوخى معاني النحو في الذهن قبل أن يسوق تركيبه للمستمع، مع مراعاة الحالة الذهنية (جزء من مقتضى الحال) لدى السامع. وهذا ما يجعله يختار لفظاً دون آخر، ليصل المعنى إلى المتلقي كما قصده.

المبحث الرابع: نظرة اللسانيين المحدثين للمستوى الذهني للغة

بعد استنتاجنا المستوى الذهني للغة في الفكر اللساني العربي القديم، ولاحظنا حضوره عند كلٍّ من المتكلم والمستمع، بوصفه مستوى غير مُصرَّح به مباشرة، وإنما يُفهم من خلال تحليل أقوال الجرجاني في نظرية النظم ومقولة الجاحظ، ننقل الآن إلى استثمار هذا المعطى في إطار الفكر اللساني الغربي، وإن ظل ضمنياً في بعض التصورات، كما عند دي سوسير في ثنائية الدال والمدلول، ودورهما في التخاطب، وكذلك في اللسانيات الإدراكية عند جورج لايكوف.

أولاً: المستوى الذهني في اللسانيات العامة عند دي سوسير (1913م)

لكي نصل إلى مفهوم المستوى الذهني في الفكر اللساني الغربي، علينا أن نُلقي نظرة على ما جاء به دي سوسير في ثنائية الدال والمدلول، ونقدم تعريفاً لكلٍ منهما، مع شرح مختصر لدورة

الفصل الأول: المستوى الذهني للغة في الفكر البلاغي العربي القديم والفكر اللساني الغربي الحديث.

التخاطب. وبعد الانتهاء من هذا التحديد، نقوم باستنتاج هذا المستوى وكيف نظر إليه هذا العالم اللساني.

- تعريف دي سوسير للدال (Signifiant): هو «الصورة السمعية (image acoustique) التي تدل على شيء ما أو تعني شيئاً ما»¹

ومن خلال هذا التعريف نستنتج أن مفهوم الدال هو الصورة الصوتية للكلمة، ويكون مقرها الذهن، فهو عنصر ذهني.

- تعريف المدلول (Signifié): عرّفه سوسير: «بأنه التصور أو الشيء المعني»²

نستنتج مفهوم المدلول بأنه التصور الذهني أو مجموعة من الأفكار التي تثيرها الصورة السمعية، أي الدال، في ذهن المتلقي، فهو لا يحيل إلى الشيء الخارجي في ذاته، بل إلى مفهومه الذهني المجرد.

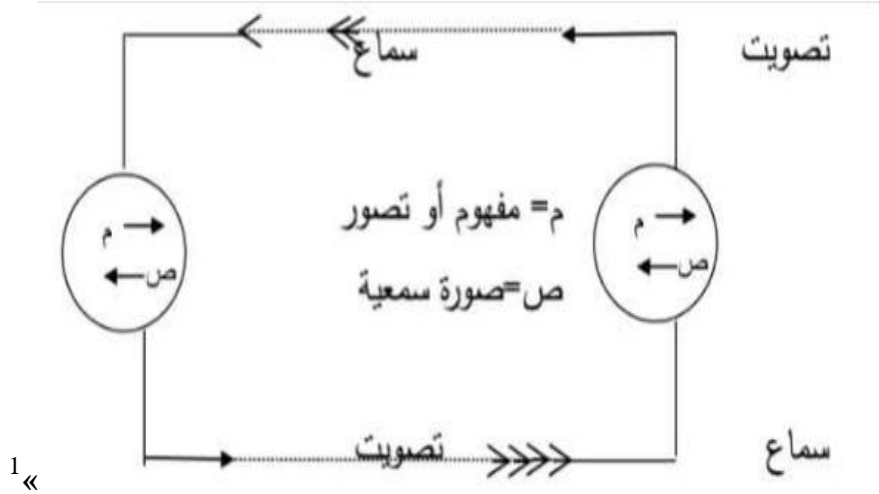
- دورة التخاطب عند دي سوسير: دورة التخاطب عند دي سوسير ليس مجرد انتقال للأصوات، بل هو تفاعل بين ذهنين، حيث يشترك المتكلم والمستمع في النظام اللغوي الذهني، مما يسمح بفهم الرسالة. فهي عملية تبادل لغوي، حيث يحول المتكلم أفكاره إلى صور لغوية ذهنية (دال)، ثم إلى أصوات منطوقة، فيعيد المستمع تحويل تلك الأصوات إلى معانٍ في ذهنه، فيفهم ما يُقال له.

¹ أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ص127.

² نفسه، ص127.

الفصل الأول: المستوى الذهني للغة في الفكر البلاغي العربي القديم والفكر اللساني الغربي الحديث.

«إن منطلق دورة التخاطب موجود في دماغ المتكلم أو المستمع، حيث تقترن ظواهر الإدراك، وهي التي نسميها المتصورات الذهنية، فإن العملية التي تحدث بينهما تمثل ظاهرة نفسية صرفة، تليها عملية فيزيولوجية.



نستنتج المستوى الذهني للغة عند المتكلم والمستمع من خلال ثنائية الدال والمدلول ودور

التخاطب، فيما يلي:

- عند المتكلم تبدأ عملية الكلام بالمدلول، أي فكرة أو مفهوم يريد التعبير عنه، ثم يقوم بعملية الاختيار، أي يختار الدال (كلمة أو العلامة اللغوية) التي تمثل الفكرة المراد التعبير عنها، ويربط في ذهنه بين الدال والمدلول (فكل دال يحمل مدلولاً)، فهذا يظهر لنا تفكير المتكلم في المعنى قبل النطق به.

- المستمع يسمع الدال (الصوت)، ثم يستعيد الفكرة في ذهنه، ففهم المعنى عنده متعلق بالعلاقة التي رآها المتكلم بين الدال والمدلول، فهذا يظهر المستوى الذهني للغة، فالمعنى ليس في الصوت، بل في الاسترجاع الذهني للمدلول.

¹ ينظر: دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، تر: صالح قرمادي وآخرون، دط، دب، 1910، دار العربية للكتاب، ص32.

الفصل الأول: المستوى الذهني للغة في الفكر البلاغي العربي القديم والفكر اللساني الغربي الحديث.

- فالتفكير في المعنى قبل اختيار الكلمة (المدلول والدال)، والتأكد أن الدال الذي يختاره يمكن أن يفهمه المتلقي بنفس المدلول.

- إدراك الفهم الحقيقي يكون في الذهن، والصوت مجرد وسيط.

- المتكلم، يمر المتكلم قبل إنتاجه للكلام، بمرحلة ذهنية تتمثل في استحضار واختيار الأغراض والمعاني في ذهنه، وهي معانٍ مجردة تخدم الحالة الذهنية للسامع كي يفهم المستمع ما يقال، ثم يلجأ إلى النظام اللغوي المخزون في ذهنه ليحوّل هذه المعاني إلى ألفاظ.

هذا بالنسبة للمتكلم، أما السامع فيظهر عنده المستوى الذهني على هذا النحو:

- عندما يحاول فك الرموز، أي فهم اللغة وتحويل الأصوات إلى معانٍ في الذهن، واسترجاع نفس النظام اللغوي المشترك، فيستعمل بدوره عمليات ذهنية مثل الإدراك والتأويل والفهم للوصول إلى المعنى المقصود لدى المتكلم، وهذه آخر مرحلة في المستوى الذهني عنده، وهي مرحلة الإدراك والتأويل الذهني.

هذا التصور يكشف لنا أن اللغة ليست مجرد ألفاظ، بل هي نظام ذهني سابق للتعبير، وتفاعل ذهني بين المتكلم والمستمع، بحيث تتحدد جودة الخطاب بمدى مطابقة الألفاظ المعاني الذهنية، ومدى حصول الفهم لدى السامع.

ثانيًا: المستوى الذهني للغة في اللسانيات العرفانية (الإدراكية) (Linguistique)

(cognitive) عند جورج لايفوف.

انطلاقًا من بعض المقولات الواردة في الكتب اللسانية العرفانية، والتي تتقاطع مع المستوى الذهني للغة، سعيًا إلى توظيفها في استخلاص هذا المستوى وتحديد خصائصه. علينا أولاً أن

الفصل الأول: المستوى الذهني للغة في الفكر البلاغي العربي القديم والفكر اللساني الغربي الحديث.

نعرّف اللسانيات العرفانية: ماذا نقصد بالعرفانية؟ تعنى العرفانية بالذهن البشري وعلاقته باللغة، أي تهتم بدراسة علاقة اللغة بالذهن.

نجد عطية سليمان أحمد يقول في هذا الصدد: «تقوم اللسانيات العرفانية على دراسة العلاقة بين البشرية والذهن والتجربة، بما فيها الاجتماعي والمادي والبيئي، أي العلاقة بين: اللغة + الذهن + التجربة = التجربة الاجتماعية والمادية والبيئية»¹

من خلال هذا القول يتبين لنا أن اللغة هي انعكاس لكيفية تفكير الإنسان وكيف يعيش، ومعاني اللغة تأتي من خلال التجارب في الحياة ومن طريقة عمل الذهن. فاللسانيات المعرفية هي التي تدرس العلاقة بين اللغة والذهن والتجربة، فهذا هو موضوعها الأساسي الذي تتناوله، إلى جانب الاستعارة التي نتطرق إليها فيما بعد.

تعد اللسانيات العرفانية من الاتجاهات الحديثة في دراسة اللغة، حيث تنظر إليها بوصفها نشاطاً ذهنياً مرتبطاً بالعمليات والتفاعلات الذهنية، كالإدراك والتفكير. وفي هذا الإطار تشير إلى أن المستوى الذهني يحتل مكانة مركزية ومحورية، إذ يُنظر إلى اللغة على أنها انعكاس مباشر لما يحدث داخل الذهن من عمليات معرفية، كالتصور والتمثل والتأويل والاستيعاب والفهم. فالإنسان لا يستعمل اللغة بشكل عشوائي أو بشكل آلي، بل يبني معانيها حسب قدراته الذهنية وتجاربِهِ المختلفة، ومن ثم يصبح فهم اللغة مرتبطاً بفهم كيفية عمل الذهن في تنظيم الخبرات وإنتاج الدلالات والمعاني.

ويمكن استخلاص المستوى الذهني من خلال هذه المقولات التي سنتطرق إليها:

¹ ينظر: عطية سليمان أحمد، اللسانيات العصبية اللغة في الدماغ (رمزية، عصبية، عرفانية)، دط، مصر، 2019، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ص 328.

1- قول غسان إبراهيم الشمري، حيث يرى أن «اللغة موضوع نفسي، وأن بناء التعابير اللغوية ليس إلا جزءًا من العملية النفسية أو الذهنية التي تقوم عليها مختلف القدرات المعرفية لدى الإنسان. فالغاية التي سعت إليها كل نظرية لغوية نفسية هي توضيح الكيفية التي ترتبط بها اللغة والعالم ببعضهما في الذهن البشري، لتبيان الصور التي يتعلق بها التمثيل الذهني للجمل، والتمثيل الذهني للعالم»¹.

من خلال هذا القول يتضح لنا أن اللغة ليست نظامًا من القواعد والكلمات فقط، وإنما هي ظاهرة نفسية وذهنية ترتبط بعقل الإنسان، وتتصل كذلك بالعمليات النفسية مثل الإدراك والتفكير. يمكن لنا استخلاص المستوى الذهني للغة من خلال هذا القول، في أنه يتمثل في اعتبار اللغة ظاهرة معرفية نفسية، حيث تُبنى التعابير اللغوية انطلاقًا من العمليات الذهنية كالإدراك والتصور، ويقوم الذهن بربط اللغة بالعالم عبر تمثيلات ذهنية.

يمكن كذلك استخلاص المستوى الذهني للغة من خلال مفهوم مصطلح العرفانية، حيث نجد عطية سليمان أحمد يعرفها كما يلي: «تعني عملية المعالجة التي تتم داخل المخ باعتباره آلة عرفان، تدخل إليه المعرفة ثم يقوم بمعالجتها، فيخرج ناتج هذه العملية في شكل معلومات يُقدّمها المتلقي في عبارة كلامية أو نتائج حسابية أو غيرها. إنها تعني عملية الفهم التي تحدث في المخ بكل متعلقاتها، من آلة عرفان إلى مادة معرفية إلى معلومات ناتجة عن عمل آلة العرفان (المخ)»².

¹ غسان إبراهيم الشمري، عن أسس اللسانيات المعرفية ومبادئها العامة، دت، السعودية، جامعة طيبة، كلية الآداب،

ص1.

² عطية سليمان أحمد، اللسانيات العصبية، 333.

الفصل الأول: المستوى الذهني للغة في الفكر البلاغي العربي القديم والفكر اللساني الغربي الحديث.

يتضح من خلال هذا القول أن العرفانية تهتم بكيفية استقبال العقل للمعلومات وكيفية معالجتها وفهمها. فعند تلقي المستمع أو المتلقي المعرفة، يقوم ذهنه بتحليلها وتنظيمها كي يستوعبها ويفهمها، ونتيجة هذه المعالجة الذهنية تكون كلامًا أو أفكارًا، أي إن ما نقوله أو نفكر فيه هو نتاج عمل ذهني. فاللسانيات العرفانية تهتم بالفهم والإدراك والتفكير، أي كل العمليات المتعلقة بالمعرفة داخل الذهن.

هذا هو المستوى الذهني، أي أن الذهن يستقبل المعرفة والمعلومات من خلال المتكلم، ثم يعالجها في ذهنه من خلال عملية ذهنية ويحللها، وبعدها يُنتج المعنى في ذهن المستمع بعد استيعابه لكل العمليات التي حدثت في ذهنه، ومن خلالها في الأخير يُنتج الكلام.

المستوى الذهني هو العمليات الفعلية (المعالجة، الفهم، الإدراك)، حيث من خلالها يتم بناء المعنى في ذهن المستمع وإنتاج اللغة، ونتيجة كل هذا النشاط الذهني، أي أن الذهن يستقبل المعرفة ويحللها لينتج بنيات وتمثلات تظهر في شكل لغة. إذن فالذهن هو مركز إنتاج المعنى وحدث مختلف العمليات كالإدراك والفهم.

ومن الموضوعات الأساسية كذلك في اللسانيات العرفانية الاستعارة، ومن خلالها يمكن استخلاص المستوى الذهني للغة عند جورج لاكوف، حيث «تمثل الاستعارة عنده آلية ذهنية يتم من خلالها بناء المعنى، إذ يعتمد الذهن على التجارب المادية لفهم المفاهيم المجردة الموجودة في الذهن، وهو ما يؤكد أن اللغة نشاط معرفي مرتبط بالعمليات الذهنية. فيعرّف الاستعارة بقوله: "هي آلية أساسية نفهم من خلالها المفاهيم المجردة، ونمارس بها عملية الاستدلال المجرد."¹

¹ جورج لاكوف، النظرية المعاصرة للاستعارة، تر: طارق نعمان، دط، الاسكندرية، دت، المكتبة الاسكندرية، ص78.

الفصل الأول: المستوى الذهني للغة في الفكر البلاغي العربي القديم والفكر اللساني الغربي الحديث.

فالاستعارة عنده دليل على أن اللغة ناتجة عن عملية ذهنية، وأن الذهن هو الذي يربط بين العالم واللغة، أي إن الاستعارة ليست شيئاً تجميلياً، بل هي طريقة أساسية في التفكير. في هذا القول يرى لايكوف أن الاستعارة ليست مجرد تعبير لغوي، بل أداة ووسيلة ذهنية أساسية يعتمد عليها الإنسان للفهم، إذ يفهم الإنسان ويعالج المفاهيم المجردة عبر استعارات مبنية على تجاربه الحسية، وهذه الاستعارات تشكل أساس التفكير والاستدلال.

وهذا القول يعكس لنا بوضوح المستوى الذهني للغة، لأن الاستعارة عملية ذهنية تحدث داخل الذهن، وتقوم على التصور، وتساعد المستمع والمتلقي على بناء المعنى وتحليله وفهمه.

نتائج الفصل النظري:

نستنتج من خلال الدراسة النظرية للفصل الأول هذه النقاط الآتية:

- 1- اللغة ظاهرة اجتماعية وأداة أساسية في التواصل لا يمكن الاستغناء عنها، واللغة، قبل أن تكون عملية نطقية، فهي عملية ذهنية.
- 2- البلاغة علم يُعنى بمراعاة المتكلم لحال السامع وللسياق، أي تهتم بمقتضى الحال، فلكل مقام مقال، وعندما يتغير الموقف يتغير التعبير، ولكل موقف ما يراعيه من الكلام.
- 3- المستوى الذهني هو مجموع العمليات الذهنية المتبادلة بين ذهن المتكلم وذهن المستمع، كالإدراك والاعتقاد والنية والقصد.
- 4- الإدراك والاعتقاد هما عمليتان تحدثان في الذهن لاستيعاب وفهم ما يقال، أي الكلام.
- 5- مرت البلاغة بعدة مراحل قبل أن تصبح علمًا مستقلًا بقواعده، وتقسيمها إلى ثلاثة علوم: علم المعاني، علم البيان، وعلم البديع، وهذا كان مع السكاكي.
- 6- تعد البلاغة وسيلة مهمة لفهم إعجاز القرآن الكريم، وتذوق جمالياته، وتنمي قدرة المتعلم على التعبير والإقناع.
- 7- لم يصرح البلاغيون القدامى بمفهوم المستوى الذهني للغة، بل يمكن استخلاصه من خلال مقولات تحيل إليه فجاء هذا المستوى عند الجرجاني في نظرية النظم (بينما الجاحظ في كلامه عن العلاقة بين اللفظ والمعنى).
- 8- يظهر المستوى الذهني للغة عند سوسير في ثنائية الدال والمدلول كونها عنصرين ذهنيين ودورة التخاطب. ويظهر جليا في اللسانيات العرفانية (عند جورج لاكوف).

الفصل الأول: المستوى الذهني للغة في الفكر البلاغي العربي القديم والفكر اللساني الغربي الحديث.

9- المستوى الذهني هو عبارة عن مختلف التفاعلات والعمليات المتبادلة التي تحدث في ذهن

كل من المتكلم والمستمع، أي من خلالها يفهم المستمع ما قيل له ويستوعبه.

الفصل الثاني:

المستوى الذهني للغة عند السكاكي في

مفتاح العلوم

المبحث الأول: تحديد المصطلحات وضبط المفاهيم

المبحث الثاني: المستوى الذهني للغة عند المتكلم والمستمع في مفتاح العلوم

المبحث الثالث: كيفية تأثير المستوى الذهني للغة عند المتكلم والمستمع على التركيب

اللغوي

المبحث الرابع: المقارنة بين المستوى الذهني للغة عند البلاغيين القدماء واللسانيين

المحدثين

تمهيد:

بعد استعراضنا المسائل النظرية المتعلقة بالمستوى الذهني للغة في الفكر البلاغي العربي القديم والفكر اللساني الغربي الحديث، ننتقل في هذا الفصل إلى الجانب التطبيقي قصد الوقوف على تجليات هذا المستوى في نماذج مختارة من كتاب "مفتاح العلوم" للسكاكي، كونه ينطلق من أن اللغة أداة لنقل المعاني الذهنية، وأن جودة الكلام لا تُقاس بالصحة النحوية فقط، بل بموافقته لمقتضى الحال، مع مراعاة المتكلم لحالة السامع الذهنية، والأخذ بعين الاعتبار السياق.

المبحث الأول: تحديد المصطلحات وضبط المفاهيم

يقوم بناء الكلام، حسب السكاكي، على أساس ذهني سابق لمرحلة التلفظ، إذ لا يصوغ كلامه صدفة أو بطريقة عفوية، بل ينطلق من جملة العمليات المضمرة في ذهنه، مثل: الإدراك، الاعتقاد، القصد، والنية. فهذه عملية مشتركة بين عناصر العملية التواصلية (المتكلم والمستمع). فالمتكلم، قبل إخراج كلامه إلى حيز التلفظ، يكون قد قدر المعنى في ذهنه أو نفسه، وقام باستحضار حال المخاطب وما يقتضيه المقام من أسلوب معين. فالاهتمام بمقتضى الحال ليس أمراً بسيطاً، بل هو عبارة عن معين دقيق بالحالة الذهنية للسامع، كي ينظم كلامه ويختار بعناية التراكيب التي تتناسب مع موقف السامع وما يحقق الغرض من الكلام.

يتوزع المستوى الذهني للغة عند السكاكي في كتابه "مفتاح العلوم" عبر علم المعاني، إذ يعد مركز النظر الذهني للغة، وأكثر أبواب هذا الكتاب اتصالاً بهذا المستوى، كونه يبحث في مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

ومن ثم، فإن العملية التواصلية بين المتكلم والسامع تقوم على تفاعل ذهني مزدوج بينهما، أي إنتاج الكلام في ضوء قصد المتكلم واعتقاده، ومراعاته لحال ذهن السامع، ومن جهة أخرى في ضوء استعداد السامع على فهم وإدراك الكلام المسموع.

كما أن المستوى الذهني للغة لا يقتصر على علم المعاني فقط، بل هو حاضر أيضًا في علم البيان، إذ يظهر في إدراك المعنى في ذهن المتلقي من خلال صور بلاغية مختلفة، أو المرحلة التي ينتقل فيها المعنى من الكلمات إلى التصور العقلي.

وعليه، سنتطرق في هذا الفصل التطبيقي إلى المستوى الذهني للمتكلم والمستمع في "مفتاح العلوم" للسكاكي، مع بيان أثره في توجيه التركيب اللغوي وتوجيه معناه.

المبحث الأول: تحديد بعض المصطلحات وضبط المفاهيم

على الرغم من أن هذا الفصل يُعنى بالجانب التطبيقي للمذكورة، فلا يمكن أن يستقيم دون استحضار جملة من المصطلحات والمفاهيم، من بينها ما يخدم العملية التواصلية، مثل: المتكلم، السامع، والسياق، ومنها ما يُصنّف ضمن العمليات المضمرة في الذهن، والتي تتحكم في إنتاج الكلام عند المتكلم وفهمه عند السامع.

وتتمثل هذه العمليات في: القصد، النية، الإدراك، والاعتقاد. وتُعد هذه العمليات عناصر داخلية في الذهن تعمل على توجيه اختيار المتكلم لألفاظه وتراكيبه، كما يعتمد عليها السامع في تأويل الكلام وفهمه.

ومن ثم، فإن الإشارة إليها ضرورة منهجية، لارتباطها الوثيق بالمستوى الذهني للغة عند كل من المتكلم والمستمع، إلى جانب حضورها في المباحث الآتية.

أولاً: مفهوم المتكلم

لا يتحقق التواصل اللغوي إلا بوجود طرفين رئيسيين: الأول يُنتج الكلام ويُسمى المتكلم، ويكتسي هذا العنصر أقدمية خاصة، مما يدعونا إلى تعريفه لغة واصطلاحاً.

- لغة: يُعرّفه ابن فارس في معجمه "مقاييس اللغة" في مادة (ك ل م) بقوله: «الكاف واللم والميم أصلان: أحدهما يدل على نطقٍ مُفهم والآخر على جراح، فالأول الكلام، تقول: كَلَّمْتُهُ أَكَلَّمْتُهُ تَكَلِّمًا، وَهُوَ كَلِّمِي إِذَا كَلَّمَكَ أَوْ كَلَّمْتَهُ، ثُمَّ يَتَسَعُّونَ فَيَسْمُونَ اللَّفْظَةَ الْوَاحِدَةَ الْمُفْهَمَةَ كَلِمَةً، وَالْقِصَّةَ كَلِمَةً، وَالْقَصِيدَةَ بِطُولِهَا كَلِمَةً: ويجمعون الكَلِمَةَ كَلِمَاتٍ، وَكَلِمًا: قال الله تعالى: {وَيُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ} [النساء 46/ المائدة 13] والأضل الآخر الكَلِم: وهو الجرح، والكلام: الجراحات، وجمع الكلّم: كلوم أيضا ورجل كَلِيمٌ، وقوم كَلَمَى».¹

ومن خلال هذا التعريف اللغوي نستنتج أن المتكلم في اللغة هو الذي يقوم بفعل التكليم (التخاطب) لإيصال المعنى للسامع، أو هو الشخص الذي يصدر عنه الكلام.

- اصطلاحاً: أما في الاصطلاح، فالمتكلم هو «المرسل أو الباث، وهي ألفاظ تتضوي تحت مفهوم المتكلم. ويُعد المتكلم عنصراً من عناصر عملية الإرسال، فهو طرف تقوم عليه هذه العملية».²

ويتبين لنا من خلال هذا التعريف الاصطلاحي أن للمتكلم مقابلاً هو المتلقي (أو السامع)، فهو عنصر من عناصر العملية التواصلية، ويُعد الركن الأول فيها. وهو ذلك الطرف الذي يحول اللغة من نظمها المجرد إلى منطوق (ذات ناطقة)، إذ يقوم بإنتاج الكلام وتوجيهه إلى السامع مع مراعاة أحواله، ويختار لكل حال الأسلوب الأنسب، ولكل معنى اللفظ اللائق.

¹ ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (ك ل م)، ص 874.

² بن صالح مهدي الخفاجي، المتكلم و أثره في بناء القاعدة النحوية، كتاب سيبويه، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، كلية التربية للبنات، ع 97، ص 181.

ونضيف أنه ذلك الذي يعبر عما يدور في ذهنه من أفكار باستخدام أصوات منظّمة.

ثانيًا: مفهوم السامع

في المفهوم العام، هو العنصر الثاني الذي يشكّل العملية التواصلية، وشرط لحدوث التواصل.

- لغة: ورد في معجم "مقاييس اللغة" لابن فارس: «سَمِعَ: السَّيْنُ وَالْمِيمُ وَالْعَيْنُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ إِنِ اسْتُعْمِلَ فِي شَيْءٍ بِالأُذُنِ مِنَ الْإِنْسَانِ وَكُلِّ ذِي أُذُنٍ، تَقُولُ: سَمِعْتُ الشَّيْءَ سَمْعًا، وَالسَّمْعُ: الذِّكْرُ الْجَمِيلُ، يُقَالُ: قَدْ ذَهَبَ سَمْعُهُ فِي النَّاسِ، أَيِ صَيْتُهُ»¹

نستنتج أن المعنى اللغوي للسامع هو المدرك للأصوات بالأذن، والذي يُنسب إليه السماع، ويُستعمل أحيانًا في معنى من يصل إليه الذكر والصيت بين الناس.

- اصطلاحًا: السامع في الاصطلاح هو «الطرف الآخر الذي يُوجّه إليه المرسل خطابه عمدًا. وقد أشار اللغويون القدماء في التراث العربي إلى تأثير المرسل إليه في المرسل عند إنتاج خطابه، كما يرون أن للسامع دورًا كبيرًا عند البلاغيين، فبناء الخطاب وتداركه بحسبه مرهون إلى حدّ كبير بمعرفة حال السامع أو بافتراض ذلك الحال»²

يتضح من خلال هذا القول أن السامع عنصر فعّال في العملية التواصلية وطرف أساس فيها، فيُوجّه إليه المتكلم الكلام قصداً، فاستماعه هو المقصود بالإفهام. ومن مقابلته نجد (المخاطب)، فالرسالة تُبنى مع مراعاة حال السامع، أي يُبنى الكلام وفقه.

¹ ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (س م ع)، ص 470.

² عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ط1، بيروت، لبنان: 2004، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ص 47-48.

فالمتكلم، قبل صياغة كلامه، عليه أن يختار الألفاظ والأساليب المناسبة له، لتحقيق الغرض المقصود من الكلام.

بعد أن عرفنا السامع، رأينا من الضروري أن نشير إلى أحواله الذهنية حسب السكاكي في كتابه "مفتاح العلوم"، إذ قسّم أحوال ذهن السامع إلى ثلاثة أنواع، ولكل حالة أسلوب مناسب لتوكيد الخبر:

1- خالي الذهن: هو السامع الذي لا يعلم الخبر ولا يتوقعه، فيُلْقَى إليه الكلام بدون توكيد، لمراعاة حالته الذهنية.

مثال:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبًا خاليًا فتمكّنا

(شرح للخبر ابتدائي).

2- متردد: هو السامع الذي له تردد أو شك في الخبر، وفي هذه الحالة يُستحسن توكيد الكلام له بمؤكّد واحد فقط.

مثال: نحو: إنَّ زيّدًا عارفٌ أو لَزَيْدٌ عارفٌ (خبر طلبي).

3- منكر: هو السامع الذي يُنكر الخبر ولا يصدّقه، وفي هذه الحالة يحتاج إلى توكيد قوي، وهذا يكون بأكثر من مؤكّد.

مثال: إِنِّي لَصَادِقٌ لِمَنْ يُنْكِرُ صَدَقَكَ إِنكَارًا، وَوَاللَّهِ إِنِّي لَصَادِقٌ لِمَنْ يُبَالِغُ فِي إِنْكَارِ صَدَقَكَ
(خبر إنكاري).¹

ثالثًا: مفهوم السياق

- لغةً: ورد في "لسان العرب": «السِّيَاقُ فِي اللُّغَةِ مِنَ الْجَذْرِ اللُّغَوِيِّ (س و ق)، وَالْكَلِمَةُ مَصْدَرٌ
سَاقٌ يَسُوقُ سَوْقًا»²

قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ: «سَوَّقْتَ الْإِبِلَ تَتَابَعْتُ، وَهُوَ يَسُوقُ الْحَدِيثَ أَحْسَنَ سِيَاقٍ، وَالنِّكَاسُ يُسَاقُ
الْحَدِيثُ، وَهَذَا الْكَلَامُ مَسَافُهُ إِلَى كَذَا، وَجِئْتُكَ بِالْحَدِيثِ عَلَى سَوْقِهِ، أَيَّ عَلَى سَرْدِهِ»³

ومن خلال هذه التعريفات، نستخلص أن المعنى اللغوي للسياق هو تتابع الشيء واتصاله
في مسار واحد، أي التتابع والاتصال في السرد.

- اصطلاحًا: أما في الاصطلاح، فهو «توالي الأحداث التي صاحبت الأداء اللغوي وكانت ذات
علاقة بالاتصال، ومن هذه الناحية يُسمى سياق الموقف»⁴. ويُقصد بالسياق مجموع العوامل
والظروف الخارجية التي تحيط بالكلام لحظة إنتاجه، التي لها دور في توجيه معناه وفهمه،
مثل: المتكلم، والمخاطب، والزمان، والمكان، والحالة النفسية لكلٍّ من المتكلم والمستمع.

¹ يُنْظَرُ: السَّكَاكِي، مفتاح العلوم، ص 170-171.

² ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، ط 1، بيروت، لبنان، 1999، دار صادر،
مادة (س و ق)، ص 166-167.

³ الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، ط 1،
دب، 1988، دار الكتب العلمية، ج 2، مادة (س و ق)، ص 484.

⁴ محمد الوالي، "السياق: إشكالية قديمة في أضواء جديدة"، مجلة الإحياء، الرابطة المحمدية للعلماء، 2001، العدد
25، ص 62.

وتتحدد أهميته في كونه يساعد على فهم المعاني المقصودة، فلا يُدرك معنى الكلام كاملاً بمعزل عن هذه العناصر المذكورة.

نستنتج مما سبق أن العملية التواصلية تقوم على عناصر ضرورية ومتكاملة هي: المتكلم، السامع، السياق. يمثل المتكلم مصدر الخطاب (الكلام)، والسامع متلقيه، في حين يسهم السياق في توجيه المعنى والدلالة، ولا يحصل تواصل فعال إلا بتفاعل هذه العناصر فيما بينها، إذ تُعد عناصر جوهرية في العملية التواصلية.

بعد استكمال تحديد عناصر العملية التواصلية المتمثلة في المتكلم، السامع، السياق، ننقل إلى شرح العمليات الذهنية المضمرّة التي تتحكم في إنتاج الخطاب وفهمه، لأن التواصل لا يحدث بين العناصر الظاهرة فقط بل يستند أيضاً إلى عناصر داخلية خفية في ذهن المتكلم والمستمع، ومن أبرز هذه العمليات: القصد، النية، والاعتقاد، والإدراك، التي شرحناها في الفصل النظري.

رابعاً: القصد

ورد تعريف القصد في معجم العين للفراهيدي (ت 170 هـ) في مادة (قَصَدَ): «قَصَدَهُ الْقَصْدُ: اسْتِقَامَةُ الطَّرِيقِ، وَقَصَدَ يَقْصِدُ قَصْداً فَهُوَ قَاصِدٌ، وَالْقَصْدُ فِي الْمَعِيشَةِ أَلَّا تُسْرِفَ وَلَا تُقْتَرَّ، وَفِي الْحَدِيثِ: مَا عَالَ مُقْتَصِداً وَلَا يَعِيلُ»¹.

نستخلص من هذا التعريف اللغوي للقصد كما ورد في معجم العين أن القصد هو بلوغ الغاية والاعتدال والسير في الطريق المستقيم والاستقامة.

¹ الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين: مرتبا على حروف المعجم، تح: عبد الحميد هنداوي، ط1، بيروت - لبنان، 2003، دار الكتب العلمية، الجزء الثالث، مادة (ق ص د)، ص 393.

- اصطلاحاً: ويُعرّف اصطلاحاً بأنه «توجّه النفس إلى الشيء أو انبعاثها نحو ما تراه موافقاً، وهو مرادفٌ للنّية، وأكثر استعماله في التعبير عن التوجّه الإرادي أو العملي، وإن كان بعض الفلاسفة يطلقونه على التوجّه الذهني». ¹ نصل إلى مفهوم القصد في الاصطلاح أنه اتجاه داخلي واعٍ، وأنه مرادف للنّية والتوجّه الإرادي والعملي والذهني، وهو مبدأ بلاغي يعمل على توجيه الكلام وفق ما يناسب المقام، فهو الغاية التي يريد المتكلم إيصالها من خلال اختياره التركيب. يتلخّص القصد في أنه التوجّه نحو غايةٍ مدركة ومقصودة.

خامساً: النية

أ- لغةً: ورد في معجم مقاييس اللغة: «النية (النّويّة)، يقول: نَوَى الأمرُ بِنِيَّتِهِ إِذَا قَصَدَ لَهُ، وَمِمَّا يُصَحِّحُ هَذَا التَّأْوِيلَ قَوْلُهُمْ: نَوَاهُ اللَّهُ، كَأَنَّهُ قَصَدَ بِالْحِفْظِ وَالْحِيَاظَةِ، قَالَ:

يَا عَمْرُو أَحْسِنْ نَوَاكَ اللَّهُ بِالرُّشْدِ وَأَقْرَأْ سَلَامًا عَلَى الذَّلَفَاءِ بِالثَّمَدِ

أي قصدك بالرشد، والنّيةُ الوجهُ الذي ننويه». ² من معاني النية في اللغة: التوجّه إلى الشيء، القصد، العزم.

اصطلاحاً: النية في الاصطلاح هي «القصد إلى الفعل، أو هي عزم القلب على الشيء وتوجّهه إليه توجهاً تاماً حتى يستقر عليه، والنية مرادفة للقصد» ³، وعليه فمفهوم النية في الاصطلاح هو قرار داخلي واعٍ في الذهن يتجه إلى فعل أمر معين أو فكرة في ذهن المتكلم تحوّلت إلى قرار وإرادة معيّنة.

¹ جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، ج2، ص 193.

² ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (ن و ي)، ص 966.

³ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2، ص 514.

سادساً: مفهوم النفس اصطلاحاً

يقول السكاكي بخصوص النفس ما يلي: "إن ميل النفس إلى الحسيّات أتمّ منه إلى العقليّات، وأعني بالحسيّات ما تجرّد منها بناءً على امتناع النفس من إدراك الجزئيات على ما نُبّهت عليه، وزيادة ميلها إليها دون غيرها من العقليّات.¹"

يحمل قول السكاكي مصطلح النفس، والمقصود به هو القوة والكفاءة الإدراكية عند المتكلم والسماع التي تتلقّى بها المعاني. وتميل النفس عادةً إلى المعاني المحسوسة، (المادية) أكثر من ميلها إلى ما هو عقلي تصوري. نستنتج أن القصد والنية والنفس عمليات تُعدّ من العمليات الذهنية المضمرّة التي توجد داخل ذهن المتكلم والمجتمع على حدّ سواء، فهي عناصر أساسية في إنتاج الكلام وفهمه، حيث يستعمل المتكلم القصد والنية في اختيار تراكيبه، بينما يستند المستمع إليهما في التأويل والفهم. فمنه نستخلص أن النية والقصد يتشابهان من حيث كونهما يرتبطان بذهن المتكلم والمجتمع، وأن النفس منها تتبع هذه العمليات باعتبارها مركز الإدراك، والكل يجتمع في فهم الكلام في العملية التواصلية²

المبحث الثاني: المستوى الذهني للغة عند المتكلم والمستمع.

من خلال تتبع كتاب السكاكي (مفتاح العلوم)، يتبين لنا أنه يتضمن جملة من المواضيع التي تكشف لنا المستوى الذهني عند كلّ من المتكلم والمستمع. واخترنا النماذج التي تخدم موضوعنا، مع الإشارة إلى شرحها واستنتاجها. ونظرًا لتعدد هذه النصوص، فقد بدا اعتماد الجدول التحليلي هو الطريقة

¹ السكاكي، مفتاح العلوم، ص 350.

² الفرق بين العقل والذهن على حسب ما فهمناه: الذهن هو الجهة المستقبلية للمعلومات وموقع حضور المعاني والتصورات، ويقوم بعمليات مثل الاستحضار والإدراك والاعتقاد إلى آخره. أمّا العقل فهو الذي يحكم ويربط بين المعاني، ويميّز بينها، ويحلل ويستنتج ويصدر الأحكام.

الأنسب لتنظيمها، إذ يتيح لنا عرض هذه النصوص إلى جانب شرحها، ثم استنتاج ما تعكسه من مستوى ذهني للغة عند طرفي التواصل، بشكل منظم ودقيق.

أولاً: استخراج مواضع الذهن وتحليلها:

النص	شرحه وتحليله	استنتاج المستوى الذهني للغة عند المتكلم والمستمع
نص ص170. يقول السكاكي: «فإذا ألقى الجملة الخبرية إلى من هو خالي الذهن، عما يُلقى إليه، ليحضر طرفاها عنده وينتقش في ذهنه، استناد أحدهما إلى الآخر ثبوتاً أو انتفاءً، كفى في ذلك الانتقاش حكمه، ويمكن لمصادفته إياه خالياً» ¹	ينتمي هذا القول إلى قسم علم المعاني، في باب الخبر والإنشاء، تحديداً تقسيم الخبر باعتبار حال المخاطبين (الخبر الابتدائي)، أي أغراض الخبر من حيث الحالة الذهنية: خالي الذهن، وكيف يُلقى إليه الخبر. الأصل في المتكلم عندما يتكلم أن يكون لكلامه فائدة، فإذا قال جملة خبرية، ينبغي أن يكون لكلامه غاية، وهي إفادة المخاطب. وهذه الإفادة تكون بقدر حاجة السامع، وهو في هذا الموضع يقصد السامع خالي الذهن الذي لا يعرف شيئاً عن الخبر، فعليه أن يخبره خبراً عادياً. ثم يوضح هذا الضرب من الخبر، فإن مجرد قولك الجملة ينبغي فهم طرحها (المسند	المتكلم، قبل صياغة كلامه على شكل لغة مسموعة، يمرر المتكلم في ذهنه مجموعة من العمليات الذهنية المضمرة التي تجعله يختار كلاماً دون غيره، مراعاةً للحالة الذهنية عند المستمع. المستوى الذهني للغة عند المتكلم: نمط الإدراك: المتكلم في هذا الموضع يدرك الحالة الذهنية للمخاطب، أنه خالي الذهن، وهذا الإدراك هو أساس اختياره الخبر الابتدائي. القصد: قصد المتكلم في ذهنه هو إفادة المخاطب بخبر جديد، أي مجرد الإفهام فقط، وليس الإقناع أو إزالة الشك. الاعتقاد: يعتقد المتكلم صحة الخبر ولا يشك فيه، لذلك لم يستخدم أدوات التوكيد، ولا يتوقع إنكاراً أو شكاً من طرف

¹ السكاكي، مفتاح العلوم، ص170.

المستمع، فاختار أسلوبًا بسيطًا مباشرًا دون توكيد. النية: نيته واضحة ومباشرة، وهي إخبارية. المستوى الذهني للغة عند المستمع: السامع هو العنصر الثاني من عملية التواصل، وهو المستقبل للرسالة، فور سماعها يعمل على فك الشفرة وتأويل الكلام في ذهنه كي يفهم ما يقوله المتكلم، خاصة إذا كان الكلام يوافق الحالة الذهنية عنده. الإدراك: قبل عملية السماع لا يكون لديه إدراك للخبر، لكن بعد السماع يتشكل في ذهنه مباشرة، وخلق ذهنه من الخبر يجعله لا يملك تصورًا مسبقًا عنه، لذلك ينقش في ذهنه مباشرة دون صعوبة، فيدرك المعنى، فله قابلية عالية لتلقي المعاني.	والمسند إليه)، وينشأ في ذهنه العلاقة بينهما.	
يتضح من خلال قول السكاكي أن إثبات المسند إليه عند المتكلم ليس فقط قضية نحوية، وإنما عملية ذهنية تواصلية بين المتكلم والمستمع؛ لأن قبل التلطف بجملة فيها مسند إليه تكون أولًا قرارًا ذهنيًا ناتجًا عن اختيار لهذا التركيب دون غيره،	ينتمي هذا القول إلى قسم علم المعاني، باب الإسناد (ذكر المسند إليه/إثبات المسند إليه). والفكرة الرئيسية التي أراد السكاكي إبرازها فيه هي: لماذا نذكر (الفاعل أو المبتدأ: المسند إليه) صراحة ولا نحذفه؟ لأن الأصل فيه أن يُحذف إذا	ص 177: يقول السكاكي: في إثبات المسند إليه، أمّا الحالة التي تقتضي إثباته فهي: أن يكون الخبر عامّ النسبة إلى كل مسند إليه، والمراد تخصيصه بمعين، كقولك: زيدٌ جاء، وعمرٌ ذهب، وخالدٌ في الدار.

لأنه يراعي حالة السامع الذهنية. فنستنتج أن هناك عملية ذهنية مشتركة بين المتكلم والمستمع هي التي تشكل لنا المستوى الذهني للغة. (1) عند المتكلم: نستنتج المستوى الذهني للغة عنده فيما يلي: في هذه الحالة لا يذكر المتكلم المسند إليه عفويًا، بل بناءً على إدراكه لحالة السامع واعتقاده بوجود القرائن أو عدم وجودها، فتتشكل نيته وقصده البلاغي وفق ما سبق. فإذا قدر غموض الفهم أو غباوة المتلقي كما ذكر السكاكي في هذا الموضع، فيصرح ويثبت المسند إليه لهدف الإيضاح والتقرير، وإذا قصد التعظيم أو التبرك أو الاستلذاذ بالذكر فيثبته أيضًا استجابةً لحالة السامع الذهنية. وعليه، تتداخل لدى المتكلم عمليات ذهنية، مثل الإدراك (تقدير حال المخاطب أنه غبي يحتاج إلى كلام بسيط دون حذف)، واعتقاده بقلة الاعتماد على القرائن فيلجأ إلى الإثبات،	دلّ عليه السياق، لكنه يُذكر أو يُثبت لأغراض معينة. وقد صنّفها في هذا القول بالترتيب، وهي: إذا كان الخبر عامًّا وتريد تخصيصه، وذكر أمثلة منها (زيدٌ جاء)، فالمجيء ممكن لأي إنسان، لكن خُصص بزيد، فذكر اسمه. للاحتياط في إحضاره في ذهن السامع، إذا كان السامع لا يفهم المعنى من السياق، فنذكر المسند إليه في هذه الحالة لتوضيح المقصود. للتنبية على غباوة السامع، إذا كان بطيء الفهم، فنذكر له الأشياء صراحة دون الحذف. لتأكيد المعنى وترسيخه، أي لزيادة الإيضاح والتقرير. للتعظيم أو الإهانة؛ التعظيم مثل قولك: الله خالق كل شيء، والإهانة بذكر اسم فيه تحقير أو دلالة سلبية. للتلذذ بذكره، كتكرار اسم الله عند الموحّد: الله خالق كل شيء.	وقوله: الله أنجح ما طُلب به، والبرُّ خيرُ حقيبة الرجل. وقوله: «النفْسُ راغبةٌ إذا رَغِبَتْهَا وإذا تُرِدُّ إلى قليلٍ تقنعُ» أو يُذكر احتياطاً في إحضاره في ذهن السامع، لقلة الاعتماد على القرائن، أو للتنبيه على غباوة السامع، أو لزيادة الإيضاح والتقرير، أو لأن في ذكره تعظيماً للمذكور أو إهانةً له، كما يكون في بعض الأسماء والمقام مقام ذلك. أو يُذكر تبركاً به واستلذاً له، كما يقول الموحّد: الله خالقُ كلِّ شيءٍ ورازقُ كلِّ شيءٍ، أو لأن إصغاء السامع مطلوب، فيُبسّط الكلام إفتراضاً¹
--	--	---

¹ السكاكي، مفتاح العلوم، ص 177.

وتظهر نية وقصد المتكلم في الأغراض البلاغية التي وظفها في كلامه في كل مقام، مثل التوضيح أو الإهانة أو التعظيم، وباختيار الذكر أو الحذف لتحقيق المعنى. (2) عند المستمع: بينما يتشكل المستوى الذهني للغة عنده في قدرته على تشغيل عملياته الذهنية من إدراك وفهم العلاقة الإسنادية أولاً، وبناء الاعتقاد فيما يقصده المتكلم، ويتضح القصد عنده في محاولة فهم مراد المتكلم، أي استحضار القصد التأويلي (فهم وإعادة تأويل ما يسمع). فإذا ذكر المسند إليه صراحة، دلّ ذلك على حاجة السامع لمثل هذا التعبير.		
يمكن استخراج المستوى الذهني للغة عند المتكلم والمستمع من خلال تتبع دوافع تقديم المسند إليه على المسند، والسكاكي في هذا القول لا يصف لنا تركيباً نحوياً أو قضية لغوية فقط، بل يكشف لنا تفاعلاً ذهنياً مزدوجاً بين إنتاج عند المتكلم وتأويل وفهم عند السامع. وعليه سنذكر العمليات الذهنية التي تتحكم	يقول السكاكي في هذا الموضوع مسألة بلاغية في قسم علم المعاني، وهي تقديم المسند إليه على المسند، أي لماذا يبدأ المتكلم كلامه بالمبتدأ قبل الخبر، ومتى يكون ذلك ذا دلالة معينة وليس مجرد ترتيب عادي. في الأصل عنده تقديم المسند إليه على المسند، لكن هذا التقديم قد يكون لأغراض	صفحة 194: يقول السكاكي في تقديم المسند إليه على المسند: وأما الحالة التي تقتضي تقديمه على المسند فهي متى كان ذكره أهم، ثم إن كونه أهم يقع باعتبارات مختلفة: إما لأن الأصل فيه التقديم ولا مقتضى للعدول عنه، وستسمع كلاماً في هذا المعنى في آخر الثالث إن شاء الله تعالى، وإما لأنها

بينهما أثناء الكلام وكيف تعمل عندهما، وهي التي تشكل لنا المستوى الذهني لهما: عند المتكلم: نستنتج من كلام السكاكي في الاستفهام أن المتكلم في هذه الحالة يعتقد أن المعلومة مجهولة وتحتاج إلى جواب، لهذا يقدم أداة الاستفهام التي وقعت في هذا المثال مسنداً إليه. وفي التشويق يعتقد المتكلم أن تأخير الخبر يزيد في التشويق والتأثير، وفي ضمير الشأن كذلك يعتقد أن السامع يحتاج إلى تهئية ذهنية، فهذه العملية الذهنية (الاعتقاد) تساوي التصور الذهني لحالة ذهن السامع. النية: هي الغاية العامة من الكلام، مثل الإخبار، الاستفهام، التشويق، التوكيد، وتعمل على تحديد موضوع الخطاب. ففي هذا القول: الاستفهام نيته طلب العلم والإجابة على مجهول، والتشويق نيته جذب	بلاغية خاصة تجعل ذكره أهم في ذهن المتكلم، ويحدد أسباب هذه الأهمية فيما يلي: لأن الأصل هو تقديم المسند إليه، وإن لم يوجد داعٍ بلاغي للعدول عنه بقي الكلام على أصله، مثل: زيدٌ منطلق. إذا كان متضمناً للاستفهام، يجب أن يتقدم، مثل: أيُّهم منطلق. إذا كان متضمناً لأداة الاستفهام، مثل: أيُّهم منطلق، فالأداة الاستفهامية يجب أن تتقدم. إذا كان ضمير الشأن والقصة، مثل: هو زيدٌ منطلق، فالتقديم هنا لتهئية ذهنية لما يأتي، ولإثارة انتباه السامع. التشويق، مثل: صديقك فلان، الفاعل الصانع رجل صدوق، بدل أن تقول مباشرة: فلان رجل صدوق، فتبدأ بما يثير فضول السامع، وتؤخر الحكم (رجل صدوق) لجذب الانتباه قبل إعطاء الخبر. اسم موصول، حيث يُقدّم الاسم الموصول في هذه الحالة، ويأتي على شكل أسلوب	متضمنة للاستفهام، كقولك: أيُّهم منطلق، وسيُقرَّر في القانون الثاني، وإما لأنه ضمير الشأن والقصة، كقولك: هو زيدٌ منطلق، وعن قريب تعرف السر في التزام تقدمه، وإما لأن في تقديمه تشويقاً للسامع إلى الخبر ليتمكن في ذهنه إذا أوردته، كما إذا قلت: صديقك فلان، الفاعل الصانع، رجل صدوق، وهو إحدى خواص تراكيب الأخبار في باب «الذي»، كما إذا قلت بدل قولك: زيدٌ منطلق: الذي زيدٌ هو منطلق.¹
---	--	--

¹ السكاكي، مفتاح العلوم، ص194.

الانتباه، وضمير الشأن نيته التمهيد. المتكلم اختار نية معينة دون أخرى، فحوّل النية إلى نية لغوية محددة، فمثلا قصده الاستفهام أو قصده التشويق المتكلم في هذه الحالة كان مذكرا للحالة الذهنية للسامع. يدرك السامع الكلام بطريقة عكسية. يكون لدى المستمع اعتقادات حول المسموع، فإذا حصل تقديم في الجملة، يُكوّن اعتقادًا حول سبب هذا التقديم: لماذا قُدِّمَ هذا العنصر؟ فإذا كان (أيهم المنطوق؟) يعتقد أن هناك سؤالًا، وإذا كان ضمير الشأن يعتقد أن هناك أمرًا مهمًا. فيكون الاعتقاد تفسيرًا لنية المتكلم. نية المستمع ليست إنتاجًا بل فهمًا، إذ يريد فك المعنى للوصول إلى الدلالة. القصد التأويلي: يعيد في ذهنه بناء ترتيب الأهمية، فإذا قُدِّمَ المسند إليه يفهم أنه محور الكلام، فيدرك قصد المتكلم. وهكذا تتكامل هذه العمليات؛ فالمتكلم يبني الجملة وفق	تجزئتي للمعلومة لخلق انتظار عند السامع حتى يكتمل المعنى، وهذا ما يسمى بالبناء التدريجي للمعنى داخل ذهن السامع.	
--	---	--

تصور ذهني لحالة السامع، والمستمع يعيد بناء هذا التصور عبر الإدراك والتأويل.		
يعتبر السكاكي الاستفهام طلباً ذهنياً يدور بين تصور المفاهيم وتصديق الأحكام، وقبل توظيفه في الكلام يمر بعدة عمليات ذهنية مندرجة ابتداءً بالمتكلم وصولاً إلى السامع. عند المتكلم: الإدراك يبدأ بتصور المفاهيم أولاً في ذهنه، مثل الانطلاق في المثال السابق، وتعد هذه المرحلة مرحلة إدراك ذهني دون حكم، أي تصور مفهوم في ذهن المتكلم. ثم يأتي الاعتقاد: بعد التصور في ذهنه ينتقل إلى الحكم، مثل: هل الانطلاق موجود أو قريب؟ أي طلب فهم الانطلاق أو إثباته ونفيه، فيحدد اعتقاداً في ذهنه، أي ماذا يريد من السامع: هل يريد تصوراً (تعريفاً) أم يريد تصديقاً (إثباتاً ونفيًا). أما النية فتكون نية المتكلم في كلامه حسب ما يريد التصريح عنه؛ يكون في ذهنه تصور ثم حكم، ثم يحدد نوع الطلب، وهنا تكتمل نية المتكلم. ويمكن أن	يندرج هذا النص ضمن قسم علم المعاني: الإنشاء الطلبي، ويقسمه إلى الاستفهام والأمر والنهي والنداء. يشرح فيه الاستفهام أنه طلب حصول شيء في الذهن، وهذا المطلوب نوعان: (1) التصديق: وهو الحكم على شيء بشيء (إثباتاً أو نفيًا)، مثل: هل جاء زيد؟ فالسؤال هنا عن ثبوت المجيء لزيد، وليس عن زيد أو المجيء. والتصديق لا يحصل إلا بعد تصور الطرفين (زيد + المجيء)، ثم الحكم بينهما. (2) التصور: وهو إدراك المفهوم نفسه دون حكم، مثل: ما هو الانطلاق؟ هنا لا يوجد إثبات ولا نفي، بل فقط طلب فهم معنى الانطلاق. ثم يشرح أنواع الحكم: حكم مطلق: وهو إثبات أو نفي الشيء نفسه، مثل: الانطلاق ثابت أو غير ثابت. حكم مقيد: وهو إثبات أو نفي صفة الشيء، مثل: انطلق	صفحة 304: في قانون الطلب في الاستفهام والأمر والنهي، يقول السكاكي: أما الاستفهام والأمر والنهي والنداء فمن النوع الثاني، والاستفهام لطلب حصول في الذهن، والمطلوب حصوله في الذهن إما أن يكون حكماً بشيء على شيء أو لا يكون. والأول هو التصديق، ويمتنع انفكاكه من تصور الطرفين، والثاني هو التصور، ولا يمتنع انفكاكه من التصديق. ثم المحكوم به إما أن يكون نفس الثبوت أو الانتفاء، كما تقول: الانطلاق ثابت أو متحقق أو موجود كيف شئت، أو من الانطلاق ثابتاً، فتحكم على الانطلاق بالثبوت أو الانتفاء بالإطلاق، أو ثبوت كذا أو انتفاء كذا بالتقييد، كما تقول: انطلق قريب أو ليس بقريب، فتحكم على الانطلاق بثبوت القرب له أو بانتفائه عنه. لا مزيد للتصديق على هذين النوعين، والنوع الأول لا يحتمل

تكون استفهامًا حقيقيًا أو غير حقيقي. فنية كلامه تظهر في نوع الطلب الموجّه للسامع، ثم يصوغه لغويًا، ثم يتلفظ به، وهذه آخر مرحلة للكلام عند المتكلم، إذ يترجم ما في ذهنه صوتيًا. عند المستمع: الإدراك: يستقبل الملفوظ ثم يفهمه ويعيد بناء المفاهيم في ذهنه، أي يحدد نوع الاستفهام الموجه له، مثل: هل هذا الاستفهام يحتاج إجابة بنعم أو لا (تصديق)، أو إدراك المفهوم نفسه (تصور). فيدرك في ذهنه نوع الطلب: هل هو تصور أم تصديق. الاعتقاد: يجيب على حسب اعتقاده هو، فعندما يسمع ما يُقال له، يعتقد طبيعة الاستفهام، فتكون إجابته بنعم أو لا أو يحدد المفهوم مباشرة. النية: يفهم نية المتكلم من الكلام، فتصل له الرسالة كما أرادها المتكلم حسب نيته، فيعيد بناء قصد الخطاب داخل ذهنه.	قريب أو ليس بقريب، أي الحكم على الانطلاق بثبوت صفة القرب أو نفيها عنه.	الطلب إلا في التصديق، والمسند إليه لكونه المستهدف فيه نفس الثبوت والانقطاع ومستغنيًا عن الطلب، والنوع الثاني يحتمله في التصديق.
استنتاجًا، يتضح أن التشبيه عند السكاكي عبارة عن اشتغال ذهني مزدوج؛ لأنه بناء صورة في ذهن المتكلم ثم إعادة بنائها	يندرج هذا القول ضمن علم البيان في باب التشبيه، أراد السكاكي في هذا النص تبيان الأغراض التي تعود للتشبيه،	صفحة 341-342: الغرض العائد للمشبه يقول السكاكي: وأما أن يكون لإبرازه إلى السامع في معرض التزيين أو

والتأثر بها عند السامع، مع اشتراك الطرفين في نفس العمليات الذهنية لكن باختلاف الأداء. عند المتكلم: الإدراك: يدرك شيئين في ذهنه: المشبه (مثل الوجه) والمشبه به (مثل مقلة الطيبي)، ويدرك بينهما وجهاً من الجمال. وهذا يمثل مادة أولية في ذهن المتكلم قبل الكلام. الاعتقاد: يعتقد في ذهنه أن هناك علاقة بين الطرفين ذهنياً قبل التعبير. القصد: تتحول المعرفة داخل ذهن المتكلم إلى توجيه معين، مثل: هل يريد التزيين أو التشويه أو الاستطراف، فيختار الصيغة قبل صياغتها. النية: هي التي تحدد الأثر المطلوب في ذهن السامع، مثل إحداث الإعجاب أو الإدهاش. عند السامع: يعيد نفس العملية بطريقة استقبالية عكس ما قام به المتكلم:	أي لماذا نستخدم التشبيه، وأنه لا يستعمل فقط لبيان المعنى بل له أغراض أخرى تتعلق بكيفية تأثير هذه الصورة البلاغية في ذهن السامع، وعددها مع ذكر الأمثلة: التزيين: تحسين الصورة، والغرض منه جعل الشيء القبيح يبدو جميلاً، واستشهد بهذا المثال بتشبيه الوجه الأسود بمقلة الطيبي، فهذا يوجه المتكلم ذهن السامع إلى إدراك المعنى بطريقة حسنة. التشويه: تعظيم القبح، وهو إثارة النفور في ذهن السامع، ومثاله وجه مجذور (مشوّه)، وأراد إبراز الشيء في صورة أشد قبحاً لتضخيم القبح في ذهن السامع. الاستطراف: معنى الاستطراف عند السكاكي هو أن يكون المشبه به نادر الحضور في ذهن، فإذا ورد يحدث دهشة في ذهن السامع، ومثاله تشبيه الفحم وفيه جمر موقد ببحر من المسك أو الذهب.	التشويه أو الاستطراف وما شاكل ذلك، كما إذا شبّهت وجهاً أسود بمقلة الطيبي إفراغاً له في قالب الحسن ابتغاء تزيينه، أو كما إذا شبّهت وجهاً مجذوراً بسلحة جامدة وقد نقرتها الديكة إظهاراً له في صورة أشوه إرادة ازدياد القبح والتفجير، أو كما إذا شبّهت الفحم وفيه جمر موقد ببحر من المسك، فيؤجّه الذهن فقط له من صحة الوقوع إلى امتناعه عادة ليستطرف. والاستطراف وجه آخر، وهو أن يكون المشبه به نادر الحضور في الذهن، إما في نفس الأمر كالذي نحن فيه، فإذا أحضر استطرف استطراف النواذر عند مشاهدتها واستلذ استلذاً لجدّتها، فلكل جدّة لذة.¹
---	---	--

¹ السكاكي، مفتاح العلوم، ص 341، 342.

الإدراك: يتلقى صورتين (المشبه والمشبّه به)، ويحاول إعادة بناء العلاقة بينهما. الاعتقاد: يكون في ذهنه حكم ذهني مثل: هذا يشبه ذلك الشيء. القصد: يدرك قصد المتكلم: هل أراد التزيين أو التشويه، فيتحوّل ذلك إلى فهم نية الآخر. النية: يفهم الغرض البلاغي من التشبيه، أي إدراك نية المتكلم.		
--	--	--

الجدول رقم 01: استخراج مواضع الذهن

ثانياً: استخراج مواضع الاعتقاد وتحليلها:

النص	شرحه وتحليله	استنتاج المستوى الذهني للغة عند المتكلم والمستمع
صفحة 166: القانون الأول فيما يتعلق بالخبر يقول السكاكي: فأما السبب في كون الخبر محتملاً للصدق أو الكذب، فهو إن كان تحقق ذلك الحكم للمخبر. ومرجع كون الخبر مفيداً للمخاطب إلى استفادة المخاطب منه ذلك الحكم، ويسمى هذا فائدة الخبر، كقولك: زيدٌ عالمٌ لمن ليس واقفاً على ذلك. أو استفاد منه أنك تعلم ذلك، كقولك لمن حفظ	ينتمي هذا القول إلى قسم علم المعاني، باب الخبر (حقيقة الخبر: الصدق والكذب، فائدة الخبر ولازم فائدته). يذكر السكاكي في هذا النص لماذا الخبر يحتمل الصدق والكذب، وما هو الخبر. فالخبر عبارة عن جملة يمكن أن تقع في الواقع فتكون صادقة، ويمكن أن لا تقع فتكون كاذبة. مثال: زيدٌ عالمٌ؛ قد تكون صحيحة وقد تكون خاطئة.	المستوى الذهني للغة عند المتكلم والمستمع يتمثل فيما يأتي: المتكلم يدرك مضمون الخبر، أي حكمه، ويدرك حال المخاطب (يعلم/لا يعلم)، ويدرك الواقع واعتقاده عنه، فيعتقد صحة الحكم. بينما نيته هي إفادة السامع (فائدة الخبر) أو إظهار علمه (لازم الفائدة)، والقصد هو نقل الحكم إلى ذهن المخاطب أو إثبات علمه به،

ويختار صيغة الخبر بناءً على ذلك. السامع يدرك مضمون الخبر من سياق الكلام (هل هو إعلام أو تأكيد)، والاعتقاد يتشكل في ذهنه في حالتين: إن كان لا يعلم الخبر فيكون اعتقاداً جديداً، وإن كان يعلم يثبت اعتقاده ويضيف معرفة بحال المتكلم. أما النية فهي أن ينوي الفهم والتلقي أو تقييم صدق المتكلم، والقصد هو فائدة الخبر، أي تحصيل معرفة، ولزام الفائدة هو فهم موقف المتكلم. المتكلم يدرك حال السامع، ويعتقد الحكم، وينوي الإفادة أو إظهار العلم، ويقصد التأثير. السامع يدرك الخبر، ويبني أو يثبت اعتقاده، وينوي الفهم، ويقصد تحصيل المعنى أو تقييمه للمتكلم.	ينتقل كذلك إلى فكرة أخرى: متى يكون الخبر مفيداً؟ فائدة الخبر تكون عندما يكون المخاطب لا يعرف الحكم، فيستفيد معلومة جديدة من المتكلم. مثال: نقول زيدٌ عالمٌ لمن لا يعلم الخبر. لازم فائدة الخبر: عندما يكون السامع يعرف المعلومة، ويستفيد شيئاً آخر، وهو أن المتكلم يعلمها. مثلاً: حفظت التوراة لمن يعرف ذلك؛ فالفائدة إثبات علم المتكلم. فكرة معيار الصدق والكذب: ما هو معروف ويطابق الكلام الواقع فهو صدق، وما هو معروف ولا يطابق الكلام الواقع فهو كذب.	التوراة: قد حفظت التوراة، ويسمى هذا لازم فائدة الخبر. والأولى بدون هذه تمتع، وهذه بدون الأولى لا تمتع، كما هو الحكم اللازم للمجهول المساواة. ومرجع كونه صدقاً أو كذباً عند الجمهور إلى مطابقة ذلك الحكم للواقع أو عدم مطابقته له، وهو المتعارف بين الجمهور، وعليه التعويل. وعند بعضهم إلى مطابقة الحكم لاعتقاد المخبر أو ظنه، وإلى انطباقه لذلك، سواء كان ذلك الاعتقاد أو الظن خطأً أو صواباً، بناءً على دعوى تبرئة المخبر من الكذب متى ظهر خبره بخلاف الاعتقاد أو الظن.¹
يكشف شرحنا لهذا القول أن الكلام بين المتكلم والمجتمع عملية تفاعل ذهني، وأن المتكلم قبل صياغته لكلامه تحدث في ذهنه أولاً مجموعة من العمليات. فيبدأ بالإدراك،	هذا القول ينتمي إلى علم المعاني، باب الخبر (أضرب الخبر: الابتدائي، الطلبي، الإنكاري). وفي هذا النص يركز على الخبر الإنكاري، أي	صفحة 171 في الخبر الإنكاري: يقول السكاكي: وإذا ألقاه إلى من حكم بخلافه ليرده إلى حكم نفسه، استوجب حكمه أن يرجح

¹ السكاكي، مفتاح العلوم، ص166.

حيث يدرك مضمون خبره يقيناً، ويدرك حالة المخاطب الذهنية أنه منكر. فينشأ عن هذا الإدراك اعتقاد راسخ بصحة ما يقول، لذلك يلجأ إلى التوكيد. وينبثق منه نية إقناعية (إقناع المخاطب أو نقله من الإنكار إلى التصديق). بينما القصد يتمثل في تقوية الكلام بمختلف أدوات التوكيد للتأثير في السامع (تقوية الخبر حسب درجات الإنكار باستعمال أدوات مثل إن، واللام، والقسم). فقصدته ليس الإخبار فقط، بل التأثير في اعتقاد السامع وتغييره. أما السامع، فيدرك مضمون الكلام دون تقبله، فيحصل إدراك واستقبال للكلام في ذهنه، لكنه يواجهه باعتقاد سابق مشبع بالإنكار، فتتجه نيته إلى الرفض. بينما قصده لا يكتفي بخبر عادي، بل يحتاج إلى تأكيد قوي.	ما يُلقى إلى منكر، ويُؤكّد بأدوات التوكيد. فكرة السكاكي هنا هي أنه كلما زاد إنكار المخاطب، وجب على المتكلم أن يزيد في توكيد الخبر، باستخدام أدوات مثل: إن، واللام، أو القسم. يشرح السكاكي حالة استعمال الخبر الإنكاري، وهي عندما يكون المخاطب منكراً للحكم، أي لا يصدقه، فيلجأ المتكلم إلى تأكيدات قوية ومكثفة لإقناعه. وكلما كانت درجة الإنكار عند المخاطب كبيرة، زاد المتكلم في التوكيد. الأمثلة التي ذكرها: (إني لمن ينكر صدقك إنكاراً): فيها إن + اللام، أي توكيد قوي. (وإني لصادق): زيادة في التوكيد (إن + لام الابتداء). (والله إني صادق): أقوى درجات التوكيد (القسم + إن + اللام). فالخلاصة: التوكيد يتناسب مع درجة إنكار المخاطب.	تأكيداً بحسب ما أُشرب المخالفُ للإنكار في اعتقاده. كنحو: صادقٌ إني لمن ينكر صدقك إنكاراً، وإني لصادقٌ لمن يبالغ في إنكار صدقك، والله إني صادقٌ. على هذا.¹
انطلاقاً من تصور السكاكي في مفتاح العلوم، يتحدد المستوى الذهني للغة عند المتكلم في	ينتمي هذا القول إلى قسم علم البيان، في باب المجاز العقلي.	صفحة 393 في المجاز العقلي:

¹ المرجع نفسه، ص 171.

المجاز العقلي بوصفه تفاعلاً ذهنياً بينه وبين المستمع. فالمتكلم ينطلق من إدراكٍ واعٍ بالحقيقة؛ ففي المثال السابق الفاعل الحقيقي هو الله، ويدرك العلاقة (سببية)، كما يدرك حال المخاطب الذهنية وقدرته على الفهم. ويعتقد اعتقاداً جازماً بالحقيقة، ويعلم الفاعل الحقيقي، وهذا شرط في المجاز العقلي. وتتجه نيته إلى الإيجاز والتأثير، أي نية بلاغية لا إخبارية. أما قصده فهو نقل الإسناد وتوجيه ذهن السامع نحو التأويل، معتمداً على أنه يفهم العلاقة ويعيد بناء المعنى الصحيح. أما المستمع، فالإدراك عنده يمر بمرحلتين: إدراك أولي، وهو فهمه للجملة كما هي (أنبت الربيعُ البقلَ)، ثم إدراك ثانٍ تأويلي، حيث يفهم أن الإسناد غير حقيقي، فيبحث عن العلاقة حتى يصل إلى الحقيقة، فيتغير اعتقاده إلى تصحيح الغرض الحقيقي من المجاز الذي سمعه. ونيته هي فهم مراد المتكلم وعدم التوقف	يشرح السكاكي أن المجاز العقلي هو أن المتكلم، مع علمه بالفاعل الحقيقي للفعل، يُسند الفعل إلى غير فاعله الحقيقي. مثل: أنبت الربيعُ البقلَ؛ والحقيقة أن الله هو المنبت، لكن أُسند الفعل إلى الربيع. فهذا مجاز عقلي لأن المتكلم يعلم الحقيقة. والإسناد في هذا الموضع ليس عشوائياً، بل له علاقة، مثل السببية (الربيع سبب الإنبات). ومن هنا نفهم أن المجاز العقلي لا يعتمد على تغيير معنى الكلمة، بل على نقل الإسناد (من الفاعل الحقيقي إلى غيره). ولا يعتبر السكاكي كل كلام مخالف للحقيقة مجازاً؛ لأن الشخص إذا قال (أنبت الربيعُ البقلَ) وهو يعتقد فعلاً أن الربيع هو الفاعل الحقيقي، فهذا ليس مجازاً، بل جهل أو خطأ. لأن المجاز يشترط وعي المتكلم بالحقيقة ثم العدول عنها عمداً. أمثلة: أنبت الربيعُ البقلَ: الربيع سبب.	يقول السكاكي: المجاز العقلي هو الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه، لضرب من التأويل، إفادةً للخلاف لا بواسطة وضع، كقولك: أنبت الربيعُ البقلَ، وشفى الطبيبُ المريضَ، وكسا الخليفةُ الكعبةَ، وهزم الأميرُ الجندَ، وبنى الوزيرُ القصرَ. وإنما قلتُ: خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه، دون أن أقول: خلاف ما عند العقل، لئلا يمتنع طرده بما إذا قال الدهري، عن اعتقاد جهلٍ أو جاهلٍ غيره: أنبت الربيعُ البقلَ، راثياً إنبات البقل من الربيع، فإنه لا يُسمّى كلامه مجازاً، وإن كان بخلاف العقل في نفس الأمر. ولذلك لا تراهم يحملون نحو: أشاب الصغيرَ وأفنى الكبيرَ، وكُرِّ الغداةَ مرَّ العشيَّ، على المجاز ما لم يُعلم أو يُغلب في ظنهم أن قائلهما قاله عن اعتقاد.¹
---	---	--

¹ السكاكي، مفتاح العلوم، ص393.

عند المعنى الظاهري للعبارة. بينما القصد عنده، بخلاف المتكلم، يتمثل في إعادة بناء المعنى الصحيح؛ أي قصد تأويلي يهدف إلى الوصول إلى المعنى الحقيقي.	شفى الطبيبُ المريضةَ: الشفاء من الله، والطبيب سبب. بنى الوزيرُ القصرَ: البناءون هم الفاعلون الحقيقيون. فكلها إسناد الفعل إلى غير فاعله الحقيقي مع علم المتكلم بالحقيقة.	
--	---	--

الجدول رقم 02: استخراج مواضع الاعتقاد.

ثالثاً: استخراج مواضع الإدراك وشرحها:

النص	شرحه وتحليله	استخراج المستوى الذهني للغة عند المتكلم والمستمع
صفحة 204: قصر المسند إليه على المسند يقول السكاكي: في التفاتٍ ثانٍ، على أنه بعد الصدمة الأولى، حيث أفاق شيئاً، مدركاً بعض الإدراك، ما وجدت نفسه معه، فبنى الكلام على الغيبة قائلاً: وبات، وباتت له. ¹	هذا القول ينتمي إلى علم المعاني، تجده تحديداً في باب القصر، وهنا تناول السكاكي فكرة الالتفات، أي انتقال المتكلم من أسلوب إلى آخر نتيجة تغير في حالته الإدراكية والنفسية. يشير السكاكي إلى أن المتكلم كان في حالة اضطراب وغياب وعي، أي صدمة، ولم يستعد وعيه بنفسه، وهذا ما جعله ينتقل إلى الحديث بصيغة الغائب بدلاً من المتكلم، حيث إن الالتفات حسب السكاكي هو الانتقال من ضمير إلى آخر، أي من ضمير المتكلم إلى الغائب.	تحدثُ عمليةٌ ذهنيةٌ لدى المتكلم والمستمع. المتكلم: الإدراك، وهو انتقاله من غيابٍ إلى حضور، ووعيه جزئي. أمّا الاعتقاد، فذلك كون إدراكه غير مكتملٍ بنفسه. أمّا القصد، فهو تعبيره عن الحالة، والنية غير واعية؛ لأن أسلوبه كان ناتجاً عن الحالة النفسية. أمّا المستمع، فيقوم بدوره بعدة عمليات: الإدراك، حيث نلاحظ التحول بين الضمائر من المتكلم إلى الغائب. أمّا الاعتقاد، فيعتقد

¹ السكاكي، مفتاح العلوم، ص 204.

بوجود سببٍ نفسيٍّ لدى المتكلم. أمّا القصد (الفهم)، فيبحث في ذهنه عن دلالة ذلك الالتفات، ويفهم المعنى المقصود، ويفسر الحالة النفسية للمتكلم، أي تأويله وربط اللغة بالحالة النفسية للمتكلم والمجتمع. هنا يُدرك أنّ الالتفات ليس مجرد تعبير لغويٍّ أو أسلوبٍ فقط، بل هو انعكاسٌ للحالة الذهنية والإدراكية والنفسية للمتكلم.	والقصر هنا هو قصر المسند عليه على المسند، يفيد نوعاً من التخصيص. والسكاكي يربطه بالحالة النفسية والذهنية التي أدت إلى هذا الأسلوب، فهو يربط بين اللغة والحالة النفسية والعمليات الذهنية.	
يحدث تفاعلٌ بين المتكلم والمستمع، حيث إنّ المتكلم الناجح هو من يفكر بذهنٍ المستمع؛ لأنّه لدى كلّ منهما تحدثٌ في ذهنه مجموعةٌ من العمليات. المتكلم يبدأ بعملية الإدراك أولاً، حيث يستحضر صورتين، وهما المشبه والمشبه به، عبر ذهنه وإدراكه الحسي، ثم يختار الصورة المألوفة عنده، الواضحة؛ أي إنّ إدراك المتكلم هنا ليس عشوائياً، بل إدراكٌ انتقائي. ثم يأتي الاعتقاد، حيث يعتقد أنّ المستمع سيشاركة تلك الصورة التي اختارها، من خلال وجود معرفة إدراكية مشتركة	هذا القول للسكاكي ينتمي إلى علم البيان في مبحث أحوال التشبيه من حيث القبول والردّ. ما نلاحظه هنا أنّ السكاكي لا يعرف التشبيه، وإنما يبحث عن جودة هذا التشبيه: متى يكون مقبولاً أو مردوداً. وهذا يكون من خلال الذهن أو بأصول ذهنية، وهي أنّ إدراك الأشياء مجملّة أسهل من إدراكها مفصّلة؛ حيث إنّ الذهن يميل إلى التقاط الصور العامة بسرعة. في التشبيه، إذا كان وجه الشبه واضحاً إجمالاً فهو مقبول، بحيث إذا فُصل فيه أصبح ضعيفاً. كما أنّ صور الأشياء	نص ص 350: أحوال التشبيه يقول السكاكي: «النظر في أحوال التشبيه من كونه قريباً أو غريباً، مقبولاً أو مردوداً، والكلام في ذلك يستدعي تقديم أصول، وأنا أذكر لك ما يشير إلى كيفية سلوك الطريق هناك، بتوفيق الله تعالى، معدداً محدداً عدّة منها، لتكون لك عدّة في درك ما تسعى، تأخذ في طلبه. منها: أن إدراك الشيء مجملّاً أسهل من إدراكه مفصّلاً. ومنها: أن حضور صورة شيء تتكرر على الحس أقرب من حضور صورة الشيء يقل وروده على الحس.

بينهما. أمّا قصده فيتمثل في تسهيل الفهم، وهذا يكون بتجنّبه التعقيد من أجل تحقيق القبول، ونيتته هي اختيار التشبيه الأقرب المألوف، حيث إنّ التشبيه لا بدّ أن يكون مجملًا ومألوفًا. أمّا المستمع، فيحدث عنده الإدراك بالاستقبال؛ إذ يتلقّى الألفاظ من المتكلم، ثم يدرك المعنى إجمالاً في ذهنه؛ أي إذا كانت الصورة مألوفةً هنا يفهم، وإذا كانت غريبةً غير مألوفةٍ لا يمكنه الفهم. بعدها يأتي الاعتقاد، حيث إنّهُ يقتنع بالتشبيه إذا كان واضحًا ومألوفًا. أمّا قصدُ المستمع (الفهم) فيكمن في بحثه عن وجه الشبه، أمّا نيتته فلا تحتاج إلى تأويلٍ عميق إذا كان التشبيه سهلًا واضحًا، أمّا إذا كان يتميزّ بالتعقيد، فيبدأ المستمعُ بالشكّ فيما قيل له. من خلال هذا ندرك أنّ التشبيه ليس فنًّا لغويًا فقط، بل هو فنُّ كيفيةِ إعمالِ العقل أو الذهن للوصول إليه أثناء التواصل بين المتكلم والمستمع.	المألوفة تكون حاضرةً في الذهن بسرعة، حيث إنّ التشبيه بالمألوف يكون سريع الفهم، وبهذا يكون مقبولًا. أمّا التشبيه بشيءٍ غريبٍ غير مألوف فلا يُفهم بسهولة، وبهذا يكون مردودًا. باختصار، هنا السكاكي، فكرته تتمثل في الربط بين جودة التشبيه والإدراك، وعنده نجاح التشبيه يعتمد على قربه من طريقة إدراك الإنسان، والمتكلم الناجح هو من يفكر بذهن المستمع.	وحال هذين الأصلين واضح¹.
--	--	--

¹ السكاكي، مفتاح العلوم، ص350.

الجدول رقم 03: استخراج مواضع الإدراك

رابعاً: استخراج مواضع القصد وتحليلها

النص	شرحه وتحليله	استخراج المستوى الذهني للغة عند المتكلم والسامع
صفحة 170 في تفصيل اعتبارات الإسناد الخبري في الخبر الابتدائي، يقول السكاكي: «من المعلوم أنّ حكم العقل على إطلاق اللسان هو أن يُفرغ المتكلم في قالب الإفادة ما ينطق به، تحاشياً عن وصمة اللاغية. فإذا انتفع في الكلام مُخبراً، لزم أن يكون قصده في حكمه بالمسند إلى المسند إليه في خبره ذلك إفادته للمخاطب، متعاطياً مناطها بقدر الافتقار.»¹	هذا القول يندرج ضمن علم المعاني في باب الخبر، ضمن مبحث أحوال الإسناد الخبري حسب حال المخاطب، بالتحديد الخبر الابتدائي. فكرة السكاكي أنّ المتكلم، عندما يتلفظ بالكلام، عليه أن يفيد السامع، وإلا اعتبر كلامه لغواً، أي لا معنى له. فإذا أراد الإخبار، فعليه تحقيق الفائدة التي يحتاجها المخاطب الخالي الذهن، وذلك بأن يوجّه له خبراً ابتدائياً خالياً من التوكيد، نظراً لحالته الذهنية.	نستنتج من قول السكاكي أنّ المستوى الذهني للغة عند المتكلم والمستمع يقوم على علاقة تفاعلية بينهما، هدفها هو حصول الفائدة. المستوى الذهني للغة عند المتكلم: أولاً: المتكلم يدرك الحالة الذهنية للمستمع وقدر درجة علمه، لذلك اختار الخبر الابتدائي الخالي من التوكيد. ثانياً: الاعتقاد، إذ يتشكّل في أنه يجزم في ذهنه أنّ الصياغة المناسبة للمستمع هي جملة بسيطة، أي (مسند إليه ومسند). ثالثاً: القصد، حيث يشكّل عملية ذهنية مركزية في هذا الموضوع، إذ إنّ المتكلم عليه أن ينقل الإفادة إلى السامع كما قصدها، والخبر الابتدائي عليه أن يحقق قصده، وهي الفائدة.

¹ السكاكي، مفتاح العلوم، ص170.

رابعًا: النية، حيث تظهر نية المتكلم في اختياره الصيغة الخبرية البسيطة (الخبر الابتدائي) المناسبة لحالة السامع الذهنية. أمّا السامع (المستمع)، فتجري في ذهنه عملية تلقي الحكم الجديد: أولًا: الإدراك، حيث يتلقى الخبر الابتدائي ويحاول فهم العلاقة بين المسند إليه والمُسند، أي استقبال الرسالة ومحاولة تفكيكها وفهم مضمونها، وهكذا يكون قد وصل إليه اعتقاد وقصد ونية المتكلم.		
من خلال تحليلنا لقول السكاكي، تبين لنا أنّ المستوى الذهني للغة يقوم على تفاعل دقيق في ذهن المتكلم والمستمع معًا، عبر عملية ذهنية مشتركة، مثل والاعتقاد والقصد والنية. فالمتكلم يدرك الحالة الذهنية للمخاطب وقدرته، ويعتقد إمكانية التأثير فيه، فيقصد توجيه ذهنه لا مجرد الإخبار، بل عبر التشويق أو التعظيم أو التنبيه. أي إنّ قصد المتكلم في هذا الموضع يختلف؛ لأنه يقصد التأثير في	هذا النص مأخوذ من علم المعاني، بالضبط في الإسناد الخبري، وتتلخص فكرته الرئيسية في جعل المتكلم المسند إليه اسمًا موصولًا، وما يترتب عليه من آثار بلاغية في ذهن السامع، أو ما يُعرف بالإنكار بعد الإقرار. عندما يعبر المتكلم عن المسند إليه باسم موصول مثل "الذي"، لا يمكن للسامع الحكم مباشرة، بل يقدّم جملة صلة الموصول أولًا، ثم يؤخّر الخبر، وهذا الأسلوب يحقق عدة أغراض:	نص ص 182-183: المسند إليه اسمًا موصولًا (الإنكار بعد الإقرار). يقول السكاكي: كما إذا قلب الخبر في الصورتين، وربما جعل ذريعة إلى تعظيم شأن الخبر، وربما جعل ذريعة إلى تحقيق الخبر، وربما جعل ذريعة إلى تنبيه المخاطب على خطأ أو على معنى آخر، كقوله: إنّ الذي الوحشة في داره يؤنسه الرحمة في لحدّه، وربما قُصد بذلك أن يتوجّه ذهن السامع إلى ما سيُخبر به عنه، منتظرًا لوروده عليه حتى يأخذ

ذهن السامع بمختلف الأساليب البلاغية، فإذا قصد التعظيم مثلاً استخدم تركيباً يحقق له ذلك، وإذا قصد التشويق أو التنبيه فعل الشيء نفسه. كما أنّ المتكلم ينوي اختيار أسلوب الموصول لهدف تأخير الحكم وإحداث الترقّب. أمّا المستمع، فيتحرّك بدافع الإحساس بالنقص في الكلام المسموع عند ورود الاسم الموصول، فينتبه وينتظر، ويتشكّل اعتقاده من حالة ترقّب إلى يقين بعد ورود الخبر.	أولاً: يكون ذريعةً لتعظيم شأن الخبر، لأن تأخير الخبر يجعل السامع يترقّبه، فيعظم وقعه. ثانياً: لتحقيق الخبر وتقريره تمهيداً له بمقدمة تُثبت. ثالثاً: لتنبيه المخاطب على الخطأ، حيث يُفهم الكلام بطريقة معيّنة توحى له بشيء، ثم يُقلب المعنى. رابعاً: لتوجيه السامع وتشويقه، كما في المثال: "إنّ الذي الوحشة في داره..."، حيث يُقدّم "الوحشة في داره" لتهيئة ذهن السامع، ثم يرد الخبر بما يخالف التوقع، وهو الأنس في الخبر.	منه مكانه، إذا أورد كقوله: والذي حارت البرية فيه حيوان متحدث من جماد.¹
المستوى الذهني للغة عند المتكلم: الإدراك تبدأ العملية عنده بالإدراك، حيث يدرك درجة معرفة السامع ويحدد في ذهنه ما هو مألوف وما هو معروف عنده. الاعتقاد: ثم يقوم بالاعتقاد بأن تقريب المشبّه لا يتحقق إلا بربطه بالمشبّه به الأوضح والمعروف عند السامع (من المجهول إلى المعلوم).	يندرج هذا القول في علم البيان، حيث يبيّن السكاكي في هذا القول شروط قبول التشبيه عند ذهن السامع وأثره البلاغي، وأن نجاحه أو تحقيقه مرتبط بمدى وضوح المشبّه به وقوّته في تمثيل وجه الشبه. فأشار إلى أنّ المشبّه به إذا كان واضحاً وقويّ الحضور في الحسّ، فإنّ المشبّه يُدرك بسهولة في ذهن السامع، وهذا يخدم غرض تقرير المعنى	صفحة 383 في قبول التشبيه، يقول السكاكي: أو مثل أن يكون المشبّه به أتمّ محسوس في أمرٍ حسّيّ هو وجه الشبه، إذا قُصد تنزيل المشبّه الناقص منزلة الكامل، أو قُصد زيادة تقدير المشبّه عند السامع لمثل ما تقدّم. أو مثل أن يكون المشبّه به مُسلم الحكم، معروفاً فيما يُقصد من وجه التشبيه، إذا كان الغرض من التشبيه بيان إمكان الوجود، أو محاولة

¹ السكاكي، مفتاح العلوم، ص182-183.

بعد ذلك يتجه إلى القصد: القصد هو أن يختار غرض التشبيه حسب قصده، مثل (بيان الإمكان أو التزيين). النية: ينوي اختيار المشبه به قوي الحضور في ذهن السامع ليضمن قبوله عند السامع. أمّا عند السامع: يتحقق الإدراك عنده باستقبال الملفوظ، وفي هذه الحالة هو التشبيه، فيدرك العلاقة بين المشبه والمشبه به، ويتشكل الاعتقاد عنده على شكل غموض ثم وضوح وتصديق، لأنه ربطه في ذهنه بصورة معروفة لديه. أمّا القصد عند المستمع فهو قصده للفهم عبر ربط اللفظ الجديد بما هو معروف، بينما النية عنده تظهر في استعداده لقبول المعنى.	وتثبيته. ويشير أيضًا إلى حالة أخرى يكون فيها المشبه به مُسلّمًا معروفًا عند ذهن السامع في وجه الشبه، ففي هذه الحالة يكون التشبيه أبلغ في تحقيق أغراض مثل بيان إمكان الشيء وإزالة الاستغراب عنه، أو التزيين (أي تحسين الصورة)، أو التشويه (أي تقبيحها)، لأنّ النفس تميل إلى قبول المألوف.	التزيين، أو التشويه. وقبول النفس لما تعرف وفوق قبولها لما لا تعرف.¹
---	---	---

الجدول رقم 04: استخراج مواضع القصد

¹ السكاكي، مفتاح العلوم، ص383.

خامسا: استخراج مواضع النفس وتحليلها

النص	شرحه وتحليله	استخراج المستوى الذهني للغة عند المتكلم والسامع
صفحة 188، المسند إليه معرفة موصوفة. يقول السكاكي: ولما ترى من طلب التمييز بالوصف وامتناع أم تميز شيئاً عن شيء بما لا تعرفه له يمكنك أن تتوصل به على أن حق الوصف كونه عند السامع معلوم التحقق للموصوف ولعلمك بأن تحقق الشيء للشيء فرع على تحققه في نفسه لا يشتبه عليك أن حق كل وصف هو أن يكون في نفسه ثابتا متحققا وأن حق كل ما تقصد ثبوته للغير أن يكون في نفسه ثابتا وعندك فما لا يكون ثابتا كذلك أو متحققا يمتنع منك جعله وصفا وكذا خبرا أيضا بحكم عكس النقيض وعسى إذا استوضحت ما أريناكه أن تجذب بضبعك في تزيف رأي من لا يرى الصفة معلومة وأن تتحقق أن محاولة إثبات الثابت في نفسه لشيء آخر	هذا القول للسكاكي يندرج أو ينتمي إلى علم المعاني، بالتحديد باب المسند إليه في مبحث كونه معرفة موصوفة. فالسكاكي هنا من خلال هذا القول يبحث كيف يؤتى بالمسند إليه موصوفاً، ومتى يكون هذا الوصف مقيداً، أي إن الوصف لا يصلح إلا إذا كان معلوماً ومتحققاً عند السمع، لأن الغرض منه هو التمييز، أي إن الوصف عنده لا يكون صحيحاً ومفيداً إلا إذا كان معناه معلوم الثبوت في نفسه، ومعلوم التحقق عند السمع، لأنك لا تستطيع أن تميز شيئاً بشيء مجهول، فالوصف له وظيفة تمييز، وهذا التمييز يقتضي معرفة سابقة بالصفة ومن هنا يقول: إذا أردت أن تثبت صفة لشيء (سواء بوصف أو بخبر)، فلا بد أن تكون هذه الصفة ثابتة في ذاتها أولاً، وإلا كان إثباتها عبثاً، كما أن طلب تحصيل شيء هو حاصل في	المستوى الذهني للغة عند المتكلم وسط المستمع: حسب السكاكي من خلال هذا القول أنه يقوم على التفاعل المعرفي بينهما، فالتكلم ينشئ كلامه انطلاقاً من إدراكه لثبوت الصفات، أي يدرك أن الوصف أداة التمييز، ولا تصلح إلا إذا كانت الصفة معروفة ومتحققة، ثم يكون اعتقاده أن الصفة مشتركة المعرفة مع السامع، ثم يتحدد قصده في تمييز الموصوف وتوضيحه للمخاطب، أما نية المتكلم فتتمثل في أنه ينوي اختيار صفات مشتركة معروفة بينه وبين السامع، وليس مجرد ألفاظ فارغة. أما المستمع بدوره، فيتلقي الكلام في ذهنه عبر الإدراك؛ أي يدرك الصفة ويربطها بمعارفه السابقة، ثم يتشكل اعتقاده، حيث يعتقد مدى ثبوت الصفة مع الموصوف، وهذا من خلال معارفه السابقة. ومن خلال هذا الاعتقاد يتكون

عنده القصد في فهم الكلام؛ أي قصده هنا هو فهم لماذا اختار له المتكلم هذه الصفة. ومن هنا تتجه نيته إلى التمييز داخل ذهنه؛ أي يستنتج: هل أراد المتكلم التمييز أو التخصيص بناءً على الصفة؟ هذا يكشف لنا أن اللغة عند المتكلم والمستمع ليست ألفاظاً فقط، وإنما عملية ذهنية تقوم على المعرفة المشتركة بينهما، حيث من خلالها يتم فهم قصد المتكلم من طرف السامع عبر عمليات التأويل وغيرها.	نفسه ممتنع (تحصيل حاصل)، لأن الطلب إنما يكون لما ليس متحققاً بعد. إذًا، كل وصف أو خبر يفترض معرفة سابقة بثبوت الصفة، وإلا فقد وظيفته، كما أن إثبات الثابت أو طلبه بلا معنى.	يستدعي ثبوت ذلك الشيء الآخر في نفسه.¹
المستوى الذهني عند المتكلم والمستمع حسب هذا القول: عند المتكلم تحدث عملية ذهنية متدرجة في ذهنه، فيظهر المستوى الذهني للغة في أنه يدرك معنى مجرداً يريد التعبير عنه، مثل الشجاعة والعزم، فيحوّل المعنى إلى صورة حسية، مثل: الشجاعة = الأسد، والحيرة = الطريق المظلم. أما اعتقاده فهو يقينه بأن التشبيه يؤدي المعنى، فيعتقد أن التقريب الحسي أقوى في التأثير على النفس.	هذا النص ينتمي إلى علم البيان، بالتحديد إلى التشبيه وأحواله. تطرق السكاكي في هذا القول إلى تفسير وتحديد السبب الذي يجعل النفس تميل إلى التشبيه الحسي أكثر من العقلي، ثم بدأ بتعليل وتفسير هذه الفكرة؛ كون أن الحسيات هي محل ما تدركه الحواس، أما العقلية فهي عبارة عن مفاهيم مجردة، وإذا نُهِتَ بالمحسوس أو بأشياء حسية تصبح أقوى تأثيراً وأسهل إدراكاً وأكثر وضوحاً،	نص ص 350: أحوال التشبيه يقول السكاكي: أن ميل النفس على الحسيات أتم منه على العقلية وأعني بالحسيات ما تجرده منها بناء على امتناع النفس من إدراك الجزئيات على ما نبهت عليه وزيادة ميلها إليها دون غيرها من العقلية لزيادة تعلقها بها بسبب تجريدتها إياها بقوة العقل ونظمها لها في سلك ما عداها ولزيادة إلفها بها أيضاً لكثرة تأديها إليها من أجل كثرة طرقه وهي الحواس المختلفة

¹ السكاكي، مفتاح العلوم، ص 188.

والمتكلم يقصد به أن المستمع يفهم المعنى بطريقة أفضل بهذا التشبيه، والقصد والنية عند المتكلم يتلخصان في الإيضاح والتأثير ليترسخ المعنى في ذهن السامع، لذلك يختار التشبيه. أما المستوى الذهني للغة عند المستمع فيمر بعملية عكسية؛ فالإدراك عنده يظهر في تلقيه الصورة الحسية (التشبيه)، ثم يفهم الصورة حرفياً أولاً، ثم يدرك أن المقصود ليس المعنى الحرفي، بعدها يربط الصورة بالمثال المجرد (المقصود)، فيحوّل الصورة إلى مفهوم: الأسد = الشجاعة، الظلام = الحيرة. واعتقاد السامع هو يقينه بالمعنى المجرد.	لذلك يكون التشبيه الحسي أقوى من العقلي في تأثيره البلاغي على ذهن السامع.	المؤدية لها، وأما ما يقال من أن إلف النفس مع الحسيات أتم منه مع العقليات لتقدم إدراك الحس على إدراك العقل فبعد تقرير أن إدراك النفس إنما يكون للمجردات وأن مدرك النفس غير مدرك الحس شيء كما ترى عن إفادة المطلوب بمعزل وعن تحقيق المقصود بألف منزل. ومنها أن النفس لما تعرف أقبل منها لما لا تعرف... الشيء لا يتحصل إلا بتكرره على النفس.¹
نستنتج المستوى الذهني للغة عند المتكلم: الإدراك عند المتكلم؛ يدرك المتكلم تجربته السابقة (الصِّبَا وما فيه من اللهو)، ويدرك أن هذا الماضي يمكن التعبير عنه بصورة حسية، أي بصورة ركوب، فيحوّل المعنى المجرد	هذا النص يندرج في علم البيان، بالتحديد في الاستعارة. يدور هذا النص حول تحليل استعارة يصف بها حالة الإقلاع التام عن فعل سابق (الركوب على الصبا وما يرمز إليه من اللهو والجهل) باستخدام صورة مركبة:	نص 378 في الاستعارة المصرّح بها المحتملة للتحقيق والتخييل، يقول السكاكي: أراد أن يبين أنه أمسك عما كان يرتكب أو أن الصبا وقمع النفس عن التلبس بذاك معرضاً للإعراض الكلي عن المعادة لسلوك سبيل الغي

¹ السكاكي، مفتاح العلوم، ص350.

وركوب مراكب الجهل فقال: وعرى أفراس الصبا ورواحله أي ما بقيت آلة من آلاتها المحتاج إليها في الركوب والارتكاب قائمة كأيا نوع فرضت من الأنواع حرقه أو غيرها متى وطنت النفس على اجتتابه ورفع القلب رأسا عن دق بابه وقطع العزم عن معاودة ارتكابه. ¹	«عُرِّيت أفراسُ الصِّبا وراحلته». ويشرح المقصود من هذه الاستعارة (عُرِّيت أفراس الصبا وراحلته)، فالمعنى ليس حرفياً بل استعاري، والمقصود أن المتكلم امتنع تماماً عن كل ما كان يركبه في صباه من لهو وجهل، وكأنه لم يترك أي وسيلة "ركوب" يمكن أن توصله إلى العودة لذلك السلوك.	إلى صورة حسية، فيعتقد أنه فعلاً انقطع عن ذلك السلوك تماماً، ويظهر قصده في تأكيد شدة الانقطاع وإقناع السامع بأنه لم يعد هناك احتمال للعودة، فلجأ إلى استعمال الاستعارة بدل التعبير العادي. أما المستوى الذهني للغة عند المستمع فيكون على هذا النحو: يسمع عبارة «عُرِّيت أفراس الصِّبا وراحلته»، فيدرك أنها لا تُفهم حرفياً، لأنه لا يوجد صبا له أفراس حقيقية، فيبدأ الذهن بالبحث عن تفسير غير مباشر، فيحوّل العناصر إلى معانٍ؛ مثل: الأفراس تساوي وسائل اللهو، والركوب تساوي الانخراط في السلوك، فيفهم المعنى العميق (هو ترك اللهو والجهل).
--	--	---

الجدول رقم 05: استخراج مواضع النفس

سادسا: استخراج مواضع النية وتحليلها:

النص	شرحه وتحليله	استنتاج المستوى الذهني للغة عند المتكلم
نص ص 250 في العطف، يقول السكاكي: حصل لك أن الصنف الأول ليس موضعاً	يندرج هذا النص في قسم علم المعاني، في مبحث الفصل والوصل (العطف). يريد	المستوى الذهني للغة عند المتكلم: المتكلم عند إنتاجه الكلام يدرك القواعد (الإدراك)،

¹ السكاكي، مفتاح العلوم، ص 378،

ويعتقد بصحة ترتيب معين للتركيب، ثم يقصد في ذهنه إيصال المعنى وفق نظام ما (العطف والمعطوف عليه). وقد يضمّر في ذهنه ترتيباً غير ظاهر، وهذا يوافق (النية عند المتكلم)، كما حصل في التقديم والتأخير. أما المستمع فيبدأ بإدراك المسموع، فإذا وجد خللاً في التركيب المألوف، يعيد بناء المعنى ذهنياً، فيرى أن المتكلم كان يقصد تقديمًا وتأخيرًا، فيصح التركيب في ذهنه. يظهر لنا أن القصد عند المتكلم مستوى إنتاجي مقصود؛ لأن المتكلم لا يخطئ في القاعدة، بل يعتمد الخروج عن الترتيب المألوف لأن قصده ليس الإخبار فقط، وإنما تحقيق غرض بلاغي، مع إضمار نية الترتيب الصحيح. أما القصد عند المتكلم فهو على مستوى تأويلي عند المتلقي؛ إذ يستقبل الجملة كما سمعها، ويدرك أن فيها خللاً، فينتقل إلى اكتشاف قصد المتكلم، فيقدّر نية التقديم	السكاكي في مفتاح العلوم أن يقرر قاعدة مفادها أن العطف لا يكون صحيحاً إلا إذا تقدّم المعطوف عليه، أي لا يمكن أن تُعطف كلمة على أخرى ما لم يُذكر ما قبلها صراحة. ولذلك حكم على الأمثلة التالية: عرفت عمراً، أتاني خالداً راكباً بعدم الصحة، لأن فيها عطفًا بلا متبوع ظاهر. أما بخصوص المثال: عليك ورحمة الله السلام، فلم يُستدل به لتأكيد القاعدة، بل لبيان حالة تبدو كأنها تخالفها. في هذا المثال نجد عبارة رحمة الله جاءت معطوفة بالواو، ولكن المعطوف بين قوسين وهو السلام لم يتقدم عليها في اللفظ بل تأخر، وهذا مخالف للشرط الذي حدده. فيُفهم على أساس نية التقديم والتأخير، فكأن الأصل في الذهن: عليك السلام ورحمة الله، لكن المتكلم قدّم وأخّر لغرض بلاغي.	للعطف بأي حرف كان من حروف العطف، لفوات شرط العطف فيه وهو تقدّم المتبوع، ولم يذهب عليك أن نحو: جاء وزيد، عرفت فعمراً، وأتاني خالد وراكباً وما جرى هذا المجرى غير صحيح، وأن نحو قوله: عليك ورحمة الله السلام يلزم أن يكون عديم النظير، وأن لا يسوّغه إلا نية التقديم والتأخير.¹
---	---	---

¹ السكاكي، مفتاح العلوم، ص250.

والتأخير في ذهنه. وهكذا يُبنى قصد المتكلم عبر التأويل.		
---	--	--

الجدول رقم 06: استخراج مواضع النية

استنتاج:

خصّصنا هذه الجداول لرصد المواضيع التي وردت فيها مفاهيم: الذهن، الإدراك، القصد، النية، الاعتقاد، حيث استخرجناها وحللناها وشرحنا دلالتها في السياق البلاغي كما تحدث عنها السكاكي في كتابه مفتاح العلوم. وانطلاقاً من هذا التحليل تم التوصل إلى استنتاج عام يتمثل في تحديد المستوى الذهني للغة عند كل من المتكلم والمستمع، أي كيف تتشكل هذه العمليات الذهنية لدى المتكلم أثناء إنتاج الكلام، وكيف يعيد المستمع بناءها أثناء تلقيه الكلام.

كما لاحظنا أن جميع هذه الموضوعات التي تحيلنا إلى المستوى الذهني للغة تندرج ضمن مباحث علمي المعاني والبيان؛ إذ يرتبط علم المعاني بتنظيم الكلام وفق مقتضى الحال (الحالة الذهنية للسامع)، وهو ما يستدعي حضور الإدراك والوعي بالمقام والقصد، في حين يُعنى علم البيان بكيفية تصوير المعاني في الذهن بوسائل مختلفة.

فالبلاغة عند السكاكي عبارة عن نشاط ذهني تواصلية قائم على التفاعل بين إنتاج المعنى وفهمه بين طرفي العملية التواصلية، وليست مجرد زخرفة لفظية.

ولاحظنا أن هذه العمليات الذهنية التي تشكل المستوى الذهني للغة لا تتجلى بالطريقة نفسها عند المتكلم والمستمع؛ فالتكلم يقوم بعملية إنتاجية يقصد من خلالها توجيه الكلام وفق غاية ذهنية معينة، مع وعيه المسبق بالحالة الذهنية للمخاطب (مقتضى الحال) وما يناسبها من أساليب التعبير.

أما المستمع، فلا يتلقى الكلام فقط، بل يعيد تأويله في ذهنه من خلال عملية إدراكية وتأويلية تجعله يفهم المقصود ويستحضر نية المتكلم.

وبهذا يتضح لنا أن المستوى الذهني للغة يقوم على تفاعل بين إنتاج عند المتكلم واستقبال وتأويل عند السامع.

المبحث الثالث: كيفية تأثير المستوى الذهني للغة على التركيب اللغوي

يسعى هذا المبحث إلى بيان كيف يسهم المستوى الذهني للغة في توجيه اختيار التراكيب اللغوية وصياغتها.

والتركيب اللغوي نعني به الطريقة التي تُنظَّم بها الألفاظ والكلمات داخل الجمل وفق قواعد معينة، من أجل أداء معنى وإيصاله إلى السامع. ولا يقتصر التركيب على مجرد جمع الكلمات فقط، بل يشمل أيضًا مراعاة الحالة الذهنية عند المستمع، أي مقتضى الحال عند السكاكي.

يرتبط التركيب اللغوي ارتباطًا وثيقًا بالمستوى الذهني عند المتكلم، لأنه يُعدّ ترجمة لما يدركه في ذهنه وما يريد إيصاله من قصد ومعنى إلى السامع. كما أن السامع يعتمد بدوره على عملية ذهنية في فهم التركيب واستيعاب المعنى المقصود.

ومن ثمّ، فإن اختلاف التركيب اللغوي يعكس اختلاف الحالات الذهنية عند السامع، وكذلك اختلاف المعاني المراد إيصالها، وهو ما يؤسس للبلاغة على قاعدة محورية هي: مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

ومن خلال هذه القاعدة يمكن استخراج مبدأ عند السكاكي يُسمّى بمبدأ مراعاة حالة المخاطب. والمقصود بالحال في هذا الموضع ليس الظرف الخارجي للسامع فقط، بل يشمل أيضًا حالته الذهنية، كأن يكون عالمًا بالخبر، أو مترددًا، أو منكّرًا، وغيرها.

وبناءً على هذه الحالة، يختار المتكلم نوع الأسلوب المناسب: خبراً أو إنشاءً، مع توظيف التأكيد أو عدمه، والإيجاز، والحذف، والتقديم أو التأخير... إلخ.

وعليه، فإن اختلاف التركيب راجع إلى تقدير الحالة الذهنية للسامع؛ لأن المتكلم لا يتكلم عشوائياً، بل يُضمّر في ذهنه أفكاراً ومقاصد يريد إيصالها، والسامع بدوره يسعى لفهم المسموع وتأويله في ذهنه، فإذا قام المتكلم بتوجيه كلامه بطريقة مخصوصة تناسب المقام وحالة السامع الذهنية تكون العملية التواصلية ناجحة.

أولاً: أثر المستوى الذهني للغة في اختيار التركيب في علم المعاني

يقوم علم المعاني عند السكاكي على مراعاة مقتضى الحال، وهو ما يجعل التركيب اللغوي مرتبطاً بالحالة الذهنية للسامع، إذ تتغير صيغ التعبير عند المتكلم تبعاً لها، واتباعاً لدرجة فهم المستمع وما يقصده ويعتقده ويدركه وينويه المتكلم. فالسكاكي لم يجعل التركيب مجرد بناء نحوي فقط، وإنما وسيلة للتعبير عن العمليات الذهنية التي تتحكم في إنتاج الكلام عند المتكلم وفهمه عند السامع.

1- ضرب الخبر: يظهر المستوى الذهني للغة في توجيه التركيب في الخبر من خلال مراعاة المتكلم لأحوال السامع الذهنية قبل صياغة الكلام؛ فإن المتكلم لا يلقي الخبر للسامع بصيغة واحدة، وإنما يختار التركيب المناسب بحسب درجة إدراك واعتقاد السامع وموقفه من الخبر. ولهذا يربط السكاكي بين بناء تركيب الخبر وبين حال السامع الذهنية، فجعل لكل حالة ذهنية عند السامع تركيباً يناسبها.

فأول موضع يظهر فيه تأثير المستوى الذهني على التركيب هو تقسيم الخبر حسب اعتقاد السامع (خالي الذهن، متردد، منكر).

أ- الخبر الابتدائي: الخبر الابتدائي يُوجَّه للسامع الذي لا يملك حكمًا مسبقًا على الخبر، أي خالي الذهن، لذلك يرد الخبر خاليًا من أدوات التوكيد، لأنه لا يمتلك تصورًا مسبقًا. فالمتكلم في هذه الحالة أدرك حالة السامع، فالإدراك عملية ذهنية أساس اختيار التركيب، وقصده هو إفادة المخاطب بنسبة جديدة، ونيته إخبارية.

مثال: زيدٌ عالمٌ.¹

هذا المثال يوضح ما شرحناه، فهو خالٍ من أدوات التوكيد. وهذا النوع من الخبر يُوجَّه لمن ذهنه خالٍ، فبناء التركيب مرتبط بإدراك المتكلم لحال السامع الذهنية ومدى استعدادة لتلقي الخبر، وأنه لا يملك حكمًا سابقًا بالإنكار أو التردد.

ب- الخبر الطلبي: يأتي بوصفه الصورة الثانية في أضرب الخبر، يتجسد فيها أثر المستوى الذهني للغة على التركيب عند السكاكي، والخبر الطلبي هو الخبر الذي يُلقى مع توكيد، لأن مضمون الخبر يحتاج إلى تقوية وتثبيت في ذهن السامع، ويُلقى للسامع المتردد، أي الذي له تردد وشك في ذهنه من الخبر، ففي هذا الموضع يُؤكَّد الخبر بمؤكد واحد فقط.

مثال: لزيدٌ عارفٌ، إنَّ زيدًا عارفٌ.²

في المثالين السابقين يظهر لنا توظيف أداة التوكيد، ودخولها على التركيب يعد مظهرًا من مظاهر تأثير المستوى الذهني للغة على التركيب، لأن المتكلم لم يستعملها اعتباطًا بل مراعاةً للحالة الذهنية للسامع، فعُدَّ بنية التركيب اللغوي بما يناسب إدراك السامع وتردده تجاه مضمون الخبر.

¹ السكاكي، مفتاح العلوم، ص166

² السكاكي، مفتاح العلوم، ص171

ت- الخبر الإنكاري هو الخبر الذي يُلقى مؤكِّدًا بأكثر من أداة تأكيد لتقوية معناه وتشبيته بصورة أشد في ذهن السامع، فيظهر المستوى الذهني للغة على التركيب في الخبر الإنكاري من تكثيف أدوات التوكيد داخل التركيب، مراعاةً لإنكار المخاطب لمضمون الخبر، إذ يُصاغ التركيب بأكثر من أداة تأكيد لتقوية المعنى، مراعاةً للحالة الذهنية عند السامع (منكرًا لا يصدق الخبر).

مثال: إِنِّي لَصَادِقٌ، وَاللَّهِ إِنِّي صَادِقٌ.¹

2- إثبات المسند إليه: يقصد السكاكي بإثبات المسند إليه هو التصريح به في الكلام وعدم حذفه، ويكون ذلك لأغراض بلاغية ذكرناها في المبحث الثاني من الفصل التطبيقي، والغرض الذي يهمننا هو ما يتعلق بحالة السامع الذهنية، كونه بطيء الفهم ومحدود القدرة على استنباط المعنى أو ضعيف الإدراك، فيُذكر إليه المسند دون حذف.

الأمثلة التي استدل بها السكاكي هي: زيدٌ جاء، عمرٌ ذهب، خالدٌ في الدار.²

ويعدّ إثبات المسند إليه مظهرًا من مظاهر تأثير المستوى الذهني للغة على التركيب اللغوي، فهذا دليل على أن المتكلم يسبق بناء التركيب نشاطٌ ذهني يقوم فيه بتقدير حال السامع الذهنية ومدى قدرته على الفهم والإدراك.

فالمتكلم في هذه الحالة يفكر أولاً ويقصد ويوازن بين الحذف والذكر، ثم يختار ذكر المسند إليه حين يدرك أن السامع قد لا يفهم المعنى من السياق أو قد يكون بطيء الفهم.

¹ المرجع السابق، ص 171

² نفسه، ص 177

هكذا يكون المتكلم قد استعمل عملية ذهنية مثل الإدراك والتقدير والقصد قبل صياغة الكلام، فجاء التركيب اللغوي متأثرًا بهذه العمليات ومراعياً للحالة الذهنية للمستمع، فاختار الذكر بدل الحذف تحقيقاً للإفهام عند السامع.

3- توظيف العطف: إن اختيار المتكلم لهذا التركيب الأسلوب العطفى غير المؤلف لم يكن دون قصد، بل صدر عن قصد ذهني يقوم على مخاطبة سامع ذكي وصاحب فطنة، قادر على إعادة ترتيب الكلام في ذهنه وفهم المعنى المراد.

فيظهر تأثير المستوى الذهني للغة على التركيب، لأن فهم هذا النوع من الأساليب يحتاج إلى عمليات ذهنية مثل الإدراك والتأويل واستحضار الترتيب الأصلي للكلام، لأن العطف لا يكون صحيحاً إلا إذا تحقق شرط أساسي هو تقدم المتبوع على التابع، لأن المعطوف يأتي بعد المعطوف عليه ويرتبط به.

لهذا عُدَّت التراكيب مثل: "جاء وزيد، عرفت فعمراً"¹، تراكيب غير صحيحة، لأن حرف العطف جاء قبل المتبوع فاختل نظام الترتيب.

أما قول: "عليك ورحمة الله السلام"²، فهذا الأسلوب عند السكاكي لا يُقبل إلا بتقدير ذهني يقوم على نية التقديم والتأخير، أي إن السامع الذكي والفطن يفهم ويقدر الأصل فور سماعه، فيؤول الأصل إلى: عليك السلام ورحمة الله.

فالمتكلم في هذه الحالة اعتمد هنا على قدرة المتلقي على إعادة ترتيب الكلام في ذهنه للوصول إلى المعنى الصحيح.

¹ السكاكي، مفتاح العلوم، ص250

² نفسه، ص250

يظهر في هذا المثال أن المستمع استطاع أن يقدّر صورة العطف الصحيحة في ذهنه، كما أدرك موضع التقديم والتأخير في التركيب، وهذا يكشف تمكن وقدرة السامع الذهنية على إدراك العطف الصحيح وإدراك التقديم والتأخير، بفضل قوة انتباهه وقدرته الذهنية على استنباط المعنى.

4- المسند إليه معرفة موصوفة: يظهر تأثير المستوى الذهني للغة على التركيب في هذا الموضع، إذ يتبين أن المتكلم يختار كلامه وفقًا لما تقتضيه الحالة الذهنية للسامع وليس عشوائيًا، لأنه قصد استعمال المسند إليه معرفة موصوفة، مما يظهر أنه كان مدرّكًا لحالة السامع، وأن الصفة لا تُستعمل للتمييز إلا إذا كانت معلومة ثابتة في ذهن السامع قبل أن يُسند إليها الموصوف، ولا يستطيع أن يميز شيئًا بشيء مجهول، فالتمييز يقتضي معرفة سابقة بالصفة.

إذا أراد المتكلم أن يصف شيئًا، مثل: جاء الرجل الكريم، فلا بد أن تكون صفة الكرم معروفة ومتحققة في ذهن السامع، فالحكم بثبوت صفة لشيء (الإسناد) فرعٌ من معرفة تلك الصفة في ذاتها، ولا يصح جعل الصفة أو الخبر شيئًا غير ثابت أو غير متصور، لأنّ بذلك نطلب تحصيل ما هو غير متحقق.

هكذا يكون المتكلم مدرّكًا للحالة الذهنية للسامع، وأنه قادر على إدراك العلاقة بين الصفة والموصوف، وله رصيد معرفي متعلق بالصفة، ويوجه هذا النوع من التركيب لسامع مدرك وواعٍ ولديه قدرة على التمييز واستحضار الصفات في ذهنه، لهذا اختار المتكلم التعريف بدل التذكير، لأنه لو اعتمد التذكير يصبح تركيبه يفيد الإخبار بوجود شيء غير معين، وقصده في الأصل هو التخصيص والتعيين.

ثانياً: أثر المستوى الذهني للغة في اختيار التركيب في علم البيان.

يظهر لنا في مباحث علم البيان للسكاكي في مفتاح العلوم حضور واضح لتأثير المستوى الذهني على تشكيل التركيب واختياره، بحيث يقوم المتكلم على اختيار الكلام المناسب للحالة الذهنية المناسبة للسامع، فتظهر لنا قدرة المتكلم على تقدير حال السامع وإدراكه، ومن جهة قدرة السامع الذهنية على فهم الكلام وإدراكه.

وأدرجنا المجاز العقلي والتشبيه والاستعارة، لأنها من أبرز الأساليب البيانية التي يتجلى فيها تأثير المستوى الذهني للغة على التركيب.

1- توظيف المجاز العقلي: يعد المجاز العقلي من التراكيب التي أثر فيها المستوى الذهني للغة، إذ لا يقوم هذا الأسلوب على المعنى الظاهر وحده، بل يعتمد على عملية ذهنية تتصل بإدراك المتكلم وقصده، وكذلك بقدرة السامع على فهم العلاقة الذهنية المقصودة في التركيب.

ويوجه هذا النوع من التركيب إلى السامع الذي يتمتع بقدر من الفطنة الذهنية، أي السامع الذكي الذي يتميز بحالة ذهنية واعية، لأن المجاز العقلي يعتمد على التأويل وإدراك العلاقة بين الفعل وفاعله الحقيقي، وهذا التركيب لا يوجه لمن له ذكاء محدود أو بطيء الفهم.

مثاله: أنبت الربيعُ البقلَ، شفى الطبيبُ المريضَ، كسا الخليفةُ الكعبة¹.

في الأمثلة المذكورة، يعرف المتكلم ويدرك الفاعل الحقيقي، فاستعمل المجاز العقلي في تركيبه هذا، فلم يغيّر معنى الكلمة، بل تعمّد نقل الإسناد من الفاعل الحقيقي إلى غيره، ثقةً في فهم السامع لهذا النوع من التركيب، كونه فطنًا ويتميز بقدر عالٍ من الذكاء والتأويل الصحيح للمعنى الأصلي.

¹ السكاكي، مفتاح العلوم، ص 393

فالسامع يدرك أن هناك علاقة سببية في هذا المثال: أنبت الربيعُ البقلَ، لأن في الأصل الربيع لا ينبت البقل، بل الله تعالى هو الفاعل الحقيقي، وإنما الربيع سبب في الإنبات، الأمر نفسه مع باقي الأمثلة. مع العلم أن السامع محدود الفهم لا يُوجَّه له هذا النوع من التركيب، لاحتوائه على معنى باطني يحتاج إلى ذكاء للفهم.

2- توظيف التشبيه: يظهر تأثير المستوى الذهني للغة على التركيب في اختيار المتكلم التشبيه في كلامه دون غيره، وهو مدرك لقدرة المتلقي الذهنية على استيعاب وفهم هذا النوع من التراكيب، وفهم العلاقة بين المشبه والمشبه به. فهذا بناء لغوي يراعي فيه المتكلم الحالة الذهنية للسامع، حيث يوجه التشبيه إلى السامع القادر على الإدراك والفهم والتخيل، لأن التشبيه يحتاج إلى ذهن يستوعب العلاقات الذهنية التي يقوم عليها، واستحضار وجه الشبه بين الطرفين.

مثل: زيدٌ أسدٌ.¹ في هذا المثال لم يصرِّح المتكلم بصفة الشجاعة مباشرة، بل لجأ إلى التشبيه اعتماداً على إدراك السامع وقدرته الذهنية على فهم العلاقة بين زيد والأسد. فالمتكلم يقصد في ذهنه معنى الشجاعة، ويثق في قدرة المتلقي على استنتاج هذا المعنى، مما يدل على حضور العمليات الذهنية كالإدراك والتأويل في بناء التركيب وفهمه.

3- توظيف الاستعارة: اختيار المتكلم للاستعارة كان عن قصد منه، لأنه يدرك الحالة الذهنية للمستمع ويعلم قدرته على فهم المعاني المجازية وتأويل المعنى الذي يحمله التركيب، مع مراعاة الحالة الذهنية للمتلقي وقدرته على الإدراك والتخيل وفهم المعاني غير المباشرة.

¹ المرجع السابق، ص 355.

والخطاب القائم على الاستعارة يتوافق مع قدرة المستمع الذهنية على إدراك هذا النوع من التركيب، أما السامع الذي تُوجّه له الاستعارة فهو الذي يملك قدرة ذهنية تمكنه من تجاوز المعنى الظاهر إلى المعنى المقصود.

مثال: وعريت أفراس الصبا ورواحله. تظهر الاستعارة في إسناد الأفراس والرواحل إلى الصبا، حيث شُبّه الصبا بالإنسان الذي يملك خيولاً ووسائل للسفر.

المتكلم لم يرد المعنى الحقيقي، إنما أراد تصوير مرحلة الصبا وما يرتبط بها من حرية ونشاط، فإن المتلقي لا يفهم الكلام على حقيقته بل يستعمل إدراكه وتأويله للوصول إلى المقصود، ولهذا يفترض سامعاً فطناً وله قدرة ذهنية عالية.

المبحث الرابع: المقارنة بين المستوى الذهني للغة عند البلاغيين القدامى واللسانيين المحدثين.
يقوم هذا المبحث على مقارنة تصورات البلاغيين القدامى واللسانيين المحدثين قصد استنتاج النقاط المشتركة والمتشابهة بينهم التي تكشف حضور المستوى الذهني للغة عندهم.

أولاً: المستوى الذهني للغة عند الجاحظ والجرجاني والسكاكي.

انطلاقاً من المقولات التي عرضناها وحللناها في المبحث الرابع من الفصل النظري للمذكرة، تبين لنا أن الجاحظ والجرجاني والسكاكي يشتركون في حضور المستوى الذهني عند كل من المتكلم والسامع، لأنهم يتفقون على أن المتكلم لا يتكلم عبثاً، بل يقصد اختيار تركيب معين دون غيره يحقق غاية ذهنية وتواصلية، ويظهر عندهم حضور القصد بوصفه عملية تسبق الكلام أو إنتاجه.

ويشتركون في أن المتكلم يدرك حالة السامع الذهنية قبل بناء خطابه، أما اختلاف التراكيب التي يستعملها المتكلمون في خطاباتهم فيرجع إلى اختلاف أحوال المخاطبين ودرجات فهمهم وإدراكهم. ويؤكدون أن نجاح الخطاب والتواصل مرتبطان بقدرة المتكلم على اختيار الأسلوب المناسب للمقام.

ففهم المعنى يحتاج إلى عملية ذهنية عندهم، خاصة عند السامع أثناء استعماله للإدراك والتأويل والفهم. ويرى السكاكي أن التوكيد والتقديم والتأخير والتشبيه تأتي بحسب اعتقاد السامع وحالته الذهنية. ويمكن الاختلاف بينهم في نظرتهن إلى المستوى الذهني للغة من زاوية التركيز؛ فالجاحظ يربط اللغة عنده بقدرة المتكلم على الإفهام (المتكلم يقصد المعنى والسامع يدرك المعنى)، واهتم بوضوح البيان وقدرة الخطاب على التأثير والإقناع

بينما الجرجاني ربط المستوى الذهني للغة بالنظم، أي بالعلاقات الذهنية بين المعاني قبل الألفاظ؛ فالكلام عنده لا يكون بليغاً في المفردات وحدها، وإنما في كيفية ترتيب المعاني في ذهن ثم تأليفها. أما السكاكي فربط التركيب بالحالة الذهنية للسامع، لذلك جعل الخبر والإنشاء والتشبيه والاستعارة مرتبطة بأحوال السامع الذهنية، وجعل المتكلم عنده يدرك اعتقاد السامع ويقدر درجة فهمه أو إنكاره أو تردده، ثم يختار التركيب المناسب لذلك.

ويظهر المستوى الذهني للغة أيضاً في فكرة مقتضى الحال، إذ تكشف أفكارهم أن البلاغة هي تفاعل ذهني بين المتكلم قبل صياغة كلامه وحسن تقديره للحالة الذهنية للسامع (مقتضى الحال)، وبين السامع الذي بدوره يكون مستقبلاً ومؤولاً للمعنى.

ثانياً: المستوى الذهني للغة عند دي سوسير وجورج لاكوف والسكاكي.

وعلى الرغم من أن هذا العنوان يركز على المستوى الذهني للغة عند المحدثين خاصة سوسير وجورج، إلا أن استحضار السكاكي بينهم يبقى ضرورة منهجية، لأن ذلك يسمح بإبراز مواطن الالتقاء بينهم.

نستنتج من خلال ما عرضناه سابقاً عن دي سوسير وجورج لايفوف والسكاكي أن هناك نقاط اشتراك واختلاف بينهم، فبخصوص السكاكي ودي سوسير ينظران إلى أن اللغة مرتبطة بالذهن عند كل من المتكلم والمستمع، إذ لا تتحقق العملية التواصلية إلا بوجود إنتاج ذهني للكلام من جهة المتكلم، واستقبال وفهم ذهني للكلام من جهة السامع، وهذا ما يمكن ربطه بدور التخاطب.

فالمتكلم ينتج الكلام بعد عملية ذهنية تقوم على القصد والاختيار والترتيب ثم ينتقل الكلام إلى المستمع الذي يقوم بدوره بعملية الإدراك والفهم والتأويل. كما أن دي سوسير يرى أن العلامة اللغوية تتكون من الدال الذي يمثل الصورة الصوتية، والمدلول الذي يتمثل في التصور الذهني للمعنى، وهي علاقة ذهنية تقوم في ذهن المتكلم والمستمع معاً.

وكذلك يظهر عند السكاكي؛ إذ يعتبر أن الألفاظ لا تُقصد لذاتها، وإنما لما تحمله من معانٍ يدركها الذهن بحسب السياق ومقتضى الحال.

ويتجلى النقاط بين جورج لايفوف والسكاكي في نظرتهم إلى الاستعارة بوصفها عملية ذهنية تتجاوز الجانب الفني والجمالي للغة، فالسكاكي في مفتاح العلوم لم ينظر إلى الاستعارة على أنها مجرد تزيين للكلام، بل اعتبرها أداة ذهنية تنتقل من المعنى الحقيقي إلى المجاز اعتماداً على الإدراك والفهم والعلاقة بين المعاني.

وهذا يدل على حضور العمليات الذهنية عند المتكلم والسامع معاً، فكلاهما اعتبر الاستعارة نشاطاً ذهنياً، غير أن السكاكي ربطها بمقتضى الحال وتأثيرها في المتلقي، ويستعملها المتكلم في تركيبه بالاختيار لأنه يراعي الحالة الذهنية للمستمع.

الاختلاف بين ما جاء به السكاكي في المستوى الذهني للغة وبين اللسانيات الحديثة هو أن السكاكي في مفتاح العلوم تجاوز مجرد النظر إلى اللغة بوصفها عملية ذهنية، فربطها بمقتضى

الحال ومراعاة الحالة الذهنية للسامع، لذلك كان المتكلم عنده يختار التراكيب والأساليب بحسب درجة فهم المتلقي واعتقاده وإدراكه، بينما اللسانيات الحديثة، ومن بينها دي سوسير، ركزت على أن اللغة نظام ذهني مشترك بين أفراد الجماعة اللغوية دون أن يُعنى بتفصيل الحالة الذهنية للسامع وأثرها في توجيه الكلام أو التركيب، واقتصر النظر إلى اللغة كنظام ذهني مجرد.

استنتاجات الفصل التطبيقي:

- توصلنا من خلال هذا الفصل التطبيقي المعنون بـ المستوى الذهني للغة عند السكاكي في مفتاح العلوم إلى مجموعة من النتائج المتمثلة في ما يلي:
- تقوم العملية التواصلية على ثلاثة عناصر أساسية: المتكلم، المستمع، السياق، فتمثل بنية متكاملة ولا يتحقق التواصل الفعّال إلا بتظافرهم.
 - يمثل كل من الإدراك، الاعتقاد، القصد، النية، النفس، عمليات ذهنية عند كل من المتكلم والمستمع، وهي مشتركة في ذهنيهما، لكن لكل طرف منهما تحدث بطريقة مختلفة عن الآخر.
 - لم ترد العمليات الذهنية في نصوص السكاكي بصفة مباشرة، بل تم استنتاجها من خلال القراءة التحليلية للنصوص المعنية بالموضوع.
 - شرح نصوص السكاكي في السياق البلاغي عبارة عن مؤشر مساعد للوصول إلى استنتاج مفهوم المستوى الذهني للغة.
 - يستعمل المتكلم العمليات الذهنية (الإدراك، النية، القصد) قصد إنتاج الكلام، وتوصيله للسامع، أي حسب التركيب الذي يتم اختياره.
 - يستخدم المستمع نفس العمليات الذهنية لكن بطريقة عكسية لأنه يقصد استقبال الكلام وتأويله.
 - المستوى الذهني للغة يؤثر على اختيار التراكيب اللغوية.
 - يمثل علم المعاني ركيزة المستوى الذهني لأن المتكلم قبل اختيار التركيب اللغوي يدرك في ذهنه أولاً الحالة الذهنية للسامع، ثم يبني كلامه وفق تلك الحالة.

- تتمثل المواضيع التي أثر عليها المستوى الذهني للغة في علم المعاني (أضرب الخبر: الخبر الابتدائي الي يوجّه السامع الخالي الذهن، الخبر الطلبي الموجّه للسمع الذي ذهنه متردد، أما الإنكاري مخصص للسمع المنكر، إثبات المسند إليه: الذي يوجّه للسمع بطيء الفهم أو ضعيف الإدراك، بينما العطف يخاطب به المتكلم السامع الذكي أو الفطن، المسند إليه معرفة موصوفة: يستخدم المتكلم هذا النوع من التركيب عادة للسمع العالم).
- يظهر أثر المستوى الذهني للغة على التركيب في مواضيع متفرقة من علم البيان مثل المجاز العقلي، التشبيه، والاستعارة.
- يكشف المجاز العقلي عن مدى تأثير المستوى الذهني في التركيب لأنه يقوم على نقل الاسناد اعتمادا على العمليات الذهنية للمتكلم والمستمع، فهذا النوع من التركيب موجّه للسمع الذكي.
- يختار المتكلم التشبيه انطلاقا من إدراكه لقدرة السامع الذهنية على فهمه، وأنه قادر على استنتاج وجه الشبه، وفهم قصد المتكلم ونيته التواصلية.
- تعد الاستعارة مظهرا من مظاهر تأثير المستوى الذهني على التركيب، لأن المتكلم يعي قدرة السامع على إدراك المعاني الخفية وتأويلها بذكاء. سيفترض هذا النوع من الخطاب سامعا يتمتع بقدرة ذهنية تؤهله لتأويل قصد المتكلم، واستنباط المعنى الضمني في سهولته.
- تتفق نظرة الجاحظ والجرجاني والسكاكي في نظرتهم للمستوى الذهني، في مراعاة الحالة الذهنية عند المستمع وتأثيرها على اختيار الكلام.
- نظرة اللسانيات الحديثة للمستوى الذهني على أنه مجموعة من العمليات الذهنية التي تحدث في أذهان أطراف التواصل، لكن دون مراعاة الحالة الذهنية للمتلقي، فاقصروا النظر للغة على أنها نظام ذهني مجرد.

خاتمة

في ختام موضوعنا هذا، نحمدُ اللهَ تعالى على توفيقه وإعانتته لنا على إتمامه على خير، سائلين المولى عزَّ وجلَّ أن يكون عملاً مفيداً ونافعاً، كما نرجو منه التوفيق والسداد.

توصلنا إلى مجموعة من النتائج التي أسهمت في الإجابة عن الإشكالية المطروحة، المتمثلة

فيما يأتي:

- ركّز الجاحظ (ت255هـ) على أن اللغة مرتبطة بقدرة المتكلم على إفهام السامع، أي إحسان توظيفه للعمليات الذهنية التي تسهم في فهم المعنى عند السامع، وهي القصد، والسامع بدوره ما يسمعه ويفهمه، مع قدرة المتكلم على الإقناع والتأثير.
- ربط الجرجاني (471هـ) المستوى الذهني للغة بنظرية النظم، بمعنى العلاقات الذهنية التي تكون بين المعاني قبل الألفاظ، فاعتبر أن الكلام البليغ عنده هو ذلك الكلام الذي تترتب فيه المعاني في الذهن، ثم تأليفها، أي الكيفية التي يرتب بها المتكلم المعاني في ذهنه، ثم يخرجها على شكل ألفاظ.
- المستوى الذهني عند السكاكي مستنتج في فكرة، وهي أن المتكلم يدرك في ذهنه الحالة الذهنية للسامع ونوع الخطاب الذي يخاطبه به قبل صياغة كلامه، ثم يختار التركيب المناسب له حسب اعتقاده، ويقدر درجة فهمه وإنكاره أو ترده.
- يتجلى المستوى الذهني للغة عند دي سوسير (1913) من خلال ثنائية الدال والمدلول، ودور التخاطب

○ هو تلك العمليات الداخلية (الذهنية) التي تتم داخل ذهن المتكلم والسامع أثناء عملية الكلام وإنتاجه وفهمه، وذلك في إطار تصوره للعلاقة بين الدال والمدلول.

○ وهو قدرة المتكلم على تحويل المدلولات (أي الأفكار) إلى دوال لغوية مناسبة وفق قواعد النظام اللغوي،

○ قدرة السامع على استقبال تلك الدوال الصوتية وتحويلها مرة أخرى إلى مدلولات قابلة للفهم (فكّ الرموز).

○ تتدرج عملية إنتاج الكلام وفهمه عند المتكلم والمستمع ضمن دور التخاطب الذي تقوم فيه عملية انتقال الرسالة من ذهن المتكلم إلى ذهن السامع.

● عالـج جورج لاـيكوف الاستعارة ونظر إليها نظرة ذهنية تتوافق مع السكاكي؛ إذ اعتبر الاستعارة عنده أداة ذهنية تنتقل بالمعنى من الحقيقي إلى المجازي اعتمادًا على عمليات ذهنية كالإدراك والفهم. وهذا يدل على حضور عمليات ذهنية عند المتكلم والمستمع، تُشكّل المستوى الذهني للغة كما نظر إليه السكاكي.

● العمليات الذهنية عند المتكلم هي التي تحدد اختيار تراكيبه التي سيوجهها إلى السامع.

● يشترك المتكلم والسامع في استعمال العمليات الذهنية نفسها، غير أن المتكلم يوظفها في إنتاج الخطاب وبناء المعنى، بينما يستعملها السامع في فكّ الشفرة وتأويل الخطاب وفهم دلالاته. فالمتكلم حين يقول: "العلم نور"، يكون قد قصد في ذهنه إبراز أثر العلم في الهداية، مستعملًا الإدراك والنية في اختيار التشبيه، بينما السامع فإنه يوظف نفس العمليات قصد فهم العلاقة بين العلم والنور، فيؤول المعنى ليدرك المقصود من التشبيه. ففي هذه الحالة لم يكتفِ بتركيب الألفاظ، بل استحضر في ذهنه صورةً وبعْدًا يقصد إيصالها إلى المتلقي، والسامع بدوره أوّل هذه الصورة وفهم دلالاتها اعتمادًا على الإدراك.

- وأظهر البحث أن المستوى الذهني للغة يؤثر تأثيرًا واضحًا على التركيب اللغوي من خلال مراعاة المتكلم لحال المخاطب الذهنية عند بناء الكلام، التركيب اللغوي في البلاغة العربية لم يكن منفصلاً عن المستوى الذهني للغة، بل جاء مرتبطاً بإدراك المتكلم وقصده، وبقدرة السامع على التأويل.
- راعى السكاكي الحالات الذهنية المختلفة للسامع، كالسامع المتردد، والمنكر، والذكي الفطن، وضعيف الإدراك، فجعل لكل حالة ما يناسبها من تراكيب لغوية؛ إذ يوجّه الخبر الخالي من التوكيد إلى خالي الذهن، بينما يؤكد بمؤكد واحد أو أكثر إذا كان السامع متردداً أو منكراً.
- يظهر المستوى الذهني للغة عند السكاكي في علم المعاني من خلال مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فينظم المتكلم الكلام في ذهنه حسب المقام، واختياره للتوكيد والحذف والتقديم والتأخير والعطف دليل على مراعاة الحالة الذهنية للسامع، كما تجلّى في علم البيان في التشبيه، المجاز العقلي، الاستعارة، لما تتطلبه من عمليات ذهنية تقوم على الإدراك والتأويل وفهم المعنى، وأنها مختارة عن قصد مراعاة لحالة المستمع.
- كان الاهتمام بالمستوى الذهني للغة عند البلاغيين القدماء غير مباشر، إذ ركزوا على العمليات الذهنية المرتبطة بإنتاج الكلام وتلقيه مع مراعاة حال السامع الذهنية وتأثيرها في اختيار التراكيب اللغوية، وهذا ما تحدث عنه السكاكي.
- يغلب النظر عند المحدثين على اللغة بوصفها بنية ذهنية مجردة منظمة في الذهن دون مراعاة حالات السامع الذهنية، أو مقام التخاطب.
- بعد عرض الفصلين النظري والتطبيقي يتبين مفهوم المستوى الذهني بشكل كلي: هو ذلك التفاعل الذهني بين المتكلم والسامع. وهو ما يظهر في العلاقة بين الدال والمدلول ودورة التخاطب عند سوسير، إذ لا تفهم الألفاظ بوصفها أصواتاً مجردة، بل باعتبارها علامات

ذهنية ترتبط بمعاني مدركة في الذهن، وأن المتكلم يستعمل عمليات ذهنية كالإدراك، الاعتقاد، القصد، النية، من أجل اختيار التركيب المناسبة لإيصال المعنى، بينما يقوم المستمع بتوظيف نفس العمليات الذهنية في تأويل الخطاب وفهمه، ونجد أن السكاكي ذكرها كلها مع قدرة المتكلم على تقدير الحالات الذهنية للمستمع، كحال خلو الذهن أو التردد أو الإنكار، أو الفطنة، فيختار لكل حالة ما يناسبها من تركيب وأسلوب بلاغي كالتوكيد، التشبيه، الاستعارة... إلخ. والمستوى الذهني للغة لا ينفصل عن التركيب لأن بناءه عند المتكلم وتأويله عند المستمع يقومان معا على عمليات ذهنية مشتركة، تسهم في إنتاج المعنى وفهمه.

- يتمتع المتكلم عند السكاكي بقدرة عالية على تقدير الحالة الذهنية للسامع، اعتمادا على الإدراك ولذلك يبني كلامه وفق قصد ونية محددين، وفي المقابل يوظف السامع العمليات الذهنية نفسها ولكن بصورة عكسية من أجل فهم الخطاب وتأويل قصد المتكلم ونيته.
- يتأسس اختلاف التركيب اللغوي عند المتكلم على تفاوت الحالات الذهنية للسامع تبعا لما يملكه من ذكاء أو ضعف في الإدراك.
- يرى السكاكي أن المتكلم يبني كلامه بعد مراعاة مقتضى الحال، وذلك من خلال تقديره للحالة الذهنية للسامع وقدرته على الفهم.

أولاً: المعاجم

1. مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، ط4، 2004، دب، مكتبة الشروق الدولية.
2. أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين، مقاييس اللغة، اعتنى به محمد عوض مرعي والأنسة فاطمة محمد أصلان، ط1، بيروت - لبنان، 2001، دار إحياء التراث العربي.
3. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم، لسان العرب، ط1، بيروت - لبنان، 1990، دار صادر.
4. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، بيروت - لبنان، 1982، دار الكتاب اللبناني.
5. الفراهيدي الخليل بن أحمد، كتاب العين: مرتبا على حروف المعجم، تحقيق عبد الحميد هنداوي، ط1، بيروت - لبنان، 2003، دار الكتب العلمية.
6. مجدي وهبة وكمال المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط2، بيروت، 1980، مكتبة لبنان.
7. الرازي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، طبعة جديدة، بيروت، 1989، مكتبة لبنان.

ثانياً: الكتب

1. أبو العباس عبد الله بن المعتز، كتاب البديع، تحقيق عرفان معارجي، ط1، بيروت - لبنان، 2012، مؤسسة الكتب الثقافية.

2. ابن جني، عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ط2، بيروت - لبنان، دار الهدى للطباعة والنشر.
3. ابن خلدون، هو ولي الدين عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، تحقيق درويش الجويدي، دون طبعة، لبنان، المكتبة العصرية - صيدا.
4. ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، صححه وعلق عليه عبد المتعالي الصعيدي، مصر، 1952، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده.
5. أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهيل العسكري، كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دون بلد، 1952، دار إحياء الكتب العربية.
6. أحمد مؤمن، لسانيات النشأة والتطور، دون طبعة، دون بلد، 2008، ديوان المطبوعات الجامعية.
7. أنجوس جيلاي وأوسكار زاريت، الذهن والمخ، ترجمة الجزيري، مراجعة وإشراف إمام عبد الفتاح، دون طبعة، القاهرة، 2001.
8. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق محمد عبد السلام هارون، ط7، القاهرة، 1998، مكتبة الخانجي.
9. الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، 1943، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.
10. جورج، النظرية المعاصرة للاستعارة، ترجمة طارق نعمان، دون طبعة، الإسكندرية، دون تاريخ، المكتبة الإسكندرية.

11. حسن عبد الجليل يوسف، اللغة العربية بين الأصالة والمعاصرة: خصائصها ودورها الحضاري وأنصارها، ط1، 2007، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر.
12. السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه وعلّق عليه نعيم زرزور، ط2، بيروت - لبنان، 1987، دار الكتب العلمية.
13. سيوييه، عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، ط1، بيروت - لبنان، دار الجيل.
14. شوقي ضيف، البلاغة: تطور وتاريخ، القاهرة، 1990، دار المعارف.
15. الجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة في علم البيان، صححه محمد عبده، ط1، بيروت - لبنان، 1988، دار الكتب العلمية.
- a. دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق محمود محمد شاكر، دون طبعة، القاهرة، مكتبة الخانجي.
16. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ط1، بيروت - لبنان، 2004، دار الكتاب الجديد المتحدة.
17. عطية سليمان أحمد، اللسانيات العصبية: اللغة في الدماغ (رمزية عصبية عرفانية)، 2019، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، مصر.
18. غسان إبراهيم الشمري، عن أسس لسانية معرفية ومبادئها العامة، دون تاريخ، السعودية، جامعة طيبة - كلية الآداب.
19. فردينان دي سوسير، دروس في اللسانيات العامة، ترجمة صلاح قرمادي وآخرون، دون طبعة، 1910، الدار العربية للكتاب.

20. القزويني، محمد بن عبد الرحمن القزويني، تلخيص المفتاح، ط1، باكستان، 2010، مكتبة البشرى.
21. الرافعي مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ط2، بيروت، 1997، دار الكتاب العربي.

ثالثاً: المجالات

1. الخفاجي ابن صالح مهدي: المتكلم وأثره في بناء القاعدة النحوية (كتاب سيبويه)، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، كلية التربية للبنات، العدد 97.
2. محمد الوالي: السياق: إشكالية قديمة في أضواء جديدة، مجلة إحياء، الرابطة المحمدية للعلماء، 2001، العدد 25.

5.....

10.....: الفصل الأول:

11 المبحث الأول: تحديد المصطلحات وضبط بعض المفاهيم

11 أولاً: مفهوم اللغة لغة واصطلاحاً

14 ثانياً: مفهوم البلاغة لغة واصطلاحاً

16 ثالثاً: المستوى الذهني لغة واصطلاحاً

19 رابعاً: مفهوم الإدراك والاعتقاد لغة واصطلاحاً

21 المبحث الثاني: البلاغة العربية نشأتها وتطورها وأعلامها وعلومها والفائدة منها

22 أولاً: نشأة البلاغة العربية وتطورها من القرن الثاني للهجرة إلى القرن السابع للهجرة

28 ثانياً: أعلام البلاغة العربية مع مؤلفاتهم:

28 ثالثاً: علوم البلاغة العربية (علم المعاني، البيان، والبديع):

33 رابعاً: الفائدة من البلاغة العربية:

35 المبحث الثالث: نظرة البلاغيين القدماء للمستوى الذهني:

35 أولاً: المستوى الذهني للغة عند الجاحظ (255هـ)

39 ثانياً: المستوى الذهني للغة عند عبد القاهر الجرجاني (471هـ)

41 المبحث الرابع: نظرة اللسانيين المحدثين للمستوى الذهني للغة

41 أولاً: المستوى الذهني في اللسانيات العامة عند دي سوسير (1913م)

ثانياً: المستوى الذهني للغة في اللسانيات العرفانية (الإدراكية) (Linguistique)

44 cognitive) عند جورج لايفوف.

49 نتائج الفصل النظري:

51.....: الفصل الثاني:

52	تمهيد:
52	المبحث الأول: تحديد المصطلحات وضبط المفاهيم
53	أولاً: مفهوم المتكلم
55	ثانياً: مفهوم السامع
57	ثالثاً: مفهوم السياق
58	رابعاً: القصد
59	خامساً: النية
60	سادساً: مفهوم النفس اصطلاحاً
60	المبحث الثاني: المستوى الذهني للغة عند المتكلم والمستمع
61	أولاً: استخراج مواضع الذهن وتحليلها:
70	الجدول رقم 01: استخراج مواضع الذهن
70	ثانياً: استخراج مواضع الاعتقاد وتحليلها:
74	ثالثاً: استخراج مواضع الإدراك وشرحها:
77	رابعاً: استخراج مواضع القصد وتحليلها
81	خامساً: استخراج مواضع النفس وتحليلها
84	سادساً: استخراج مواضع النية وتحليلها:
86	استنتاج:
87	المبحث الثالث: كيفية تأثير المستوى الذهني للغة على التركيب اللغوي
88	أولاً: أثر المستوى الذهني للغة في اختيار التركيب في علم المعاني
93	ثانياً: أثر المستوى الذهني للغة في اختيار التركيب في علم البيان
95	أولاً: المستوى الذهني للغة عند الجاحظ والجرجاني والسكاكي
96	ثانياً: المستوى الذهني للغة عند دي سوسير وجورج لايفوف والسكاكي
99	استنتاجات الفصل التطبيقي:

101	خاتمة
105	قائمة المصادر والمراجع
109	فهرس الموضوعات